روجيه جارودي

وموقفه من الإسلام

د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي

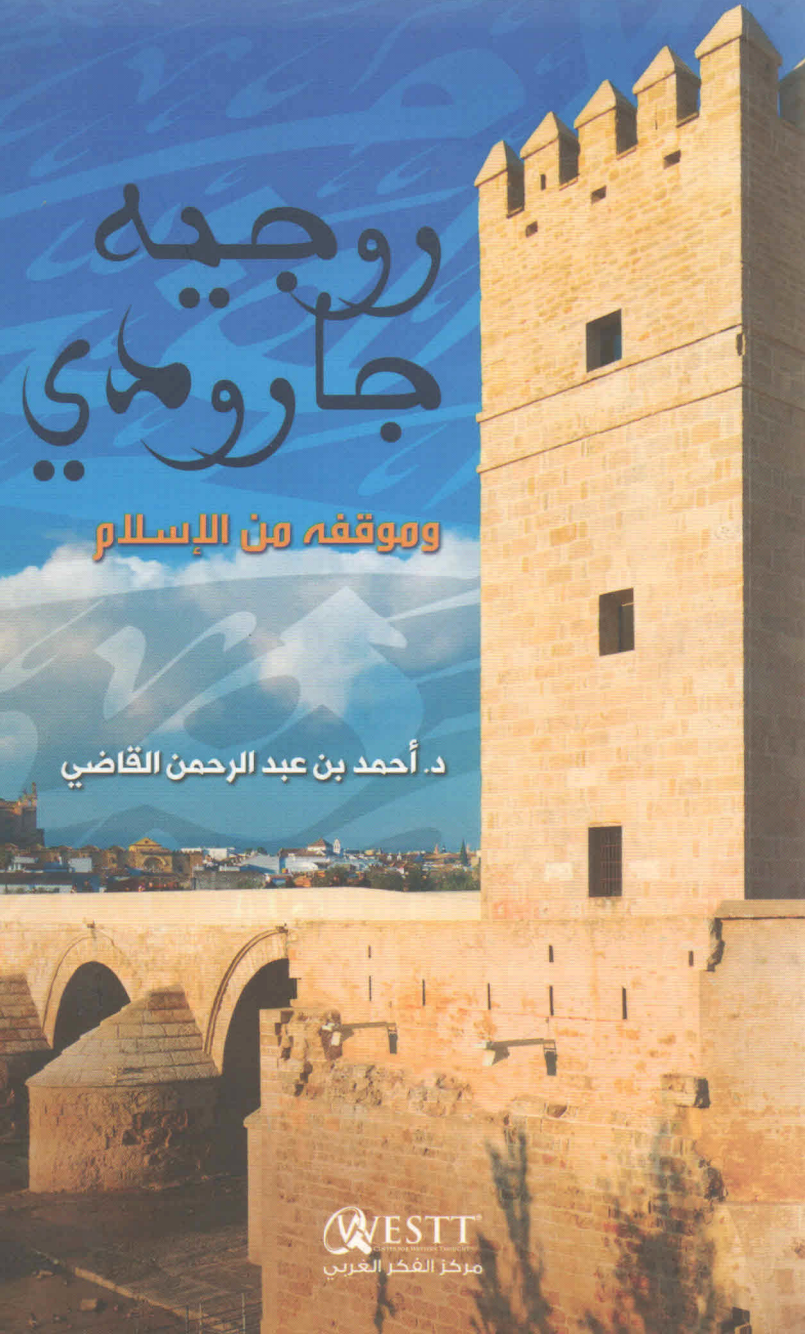

WESTT
مركز الفكر العربي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

© مركز الفكر الغربي للنشر والتوزيع، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاضي، أحمد عبد الرحمن

روجيه جارودي وموقفه من الإسلام./ أحمد عبد الرحمن القاضي - الرياض، ١٤٣٧هـ

ص ١١×١٨ سم

ردمك: ٠ - ٠ - ٩٠٧٧٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الإسلام - دفع مطاعن أ. العنوان

ديوي ١٩٤ ١٤٣٧/٤١٨٧

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٤١٨٧

ردمك: ٠ - ٠ - ٩٠٧٧٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨

تصميم الغلاف: كريم بن منصور

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
المقدمة	٧
التمهيد	١٢
أولاً: السيرة الذاتية لروجيه جارودي	١٥
ثانياً: مشروع روجيه جارودي الفكري للتقريب بين الأديان	٤٠
١) إرساء المدلول العام للإسلام، وإقصاء المدلول الخاص	٥٤
٢) التفسير التاريخي للإسلام، من منظور التقريب بين الأديان والحضارات	٥٠
٣) تقويم الحضارة الإسلامية وتراثها، من منظور التقريب بين الأديان والحضارات	٢٦
٤) الفصل بين الشريعة والتشريع	٧٩
٥) مضاهاة النصرانية	٩٤
٦) تمجيد ملل الكفر، ودعوة المسلمين إلى الانفتاح عليها والتلاقي معها	١٠٤
ثالثاً: محاولات روجيه جارودي العملية للتقريب بين الأديان والحضارات	١١٠
١) المعهد الدولي للحوار بين الحضارات	١١٠
٢) «الملتقى الإبراهيمي»	١١٥
٣) مؤسسة روجيه جارودي - المركز الثقافي في القلعة الحرة	١٣٦
المراجع	١٥٦

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ومَنَّ علينا بالإيمان، وعلمنا القرآن والبيان. والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للأنام، نبينا محمد وعلى آله وصحبه الكرام.

أما بعد: فإن «الإسلام» هو هدى الله الذي وعد به آدم عليه السلام، حين أهبطه إلى الأرض: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨].

و«الإسلام» هو ضمانة الله له ولذريته بالحياة الطيبة والعاقبة السعيدة: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

و«الإسلام» هو مشروع الله للأنبياء جميعًا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

و«الإسلام» ملة إبراهيم، ووصيته ووصية بنيه من

بعده: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١ - ١٣٣].

و«الإسلام» هو دين المؤمنين جميعاً على مر التاريخ، وعنوان شهادتهم: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

و«الإسلام» بصورته الختامية محل ترحيبهم وغبطتهم: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥١ - ٥٣] ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا

آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

فـ«الإسلام» دين الله للأولين والآخرين، بعث به جميع الأنبياء والمرسلين، وإن حاد عنه بعض من ينمي نفسه إليهم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]. فلا يقبل الله دينًا سواه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فمن رغب عنه، واستنكف عن اتباعه فقد وقع في السفه العظيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وهو حبل الله الممدود للبشرية على مر القرون، وهو «العروة الوثقى» فمن تمسك به نجا، ومن تفلت منه هلك: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]. وهو الصراط المستقيم: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وسالكوه هم ﴿أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه: ١٣٥].

وقد تعرض «الإسلام» لمحاولات اختطاف متكررة

على مدار التاريخ، وحاول كثير من الزنادقة وأهل الأهواء والبدع أن يسرقوه، ويلبسوه عباءاتهم، ويصبغوه بصبغتهم، لكنه عزيز منيع، يرفض كل شية دخيلة، ويلفظ كل صبغة ملوثة، ويحافظ على بهائه ورونقه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ومن أشهر المحاولات الحديثة لاختطاف الإسلام الحق، وتوظيفه لخدمة أنماط فكرية خاصة، محاولات المفكر الفرنسي الشيوعي المؤسلم «روجيه جارودي»! الذي تحلحل من الشيوعية البائدة، ليعتنق فكرًا إنسانيًا حضاريًا شموليًا، وأراد أن يكسوه بكسوة «إسلام» نحتته مخيلته، سماه «الإبراهيمية»، وليس من «ملة إبراهيم» في شيء!

والحق أن جارودي كان واضحًا في طرحه، مسفرًا عن زندقته، لم يخادع، وَلَمْ ينافق، بل صاغ ضلالاته بحرف جلي، وكفر بواح. فلم يخلع على عتبة الإسلام ما علق به من أسمال الجاهلية الشيوعية والبروتستانتية والإنسانية، ولم يسلم وجهه لله وهو محسن. غير أن بعض «المسوِّقين» غروا به الأمة، وحاولوا ستر سوأته، لدواع عاطفية، ومصالح ملغية. فابتلع كثير من الناس الطعم، وهللوا وصفقوا مبتهجين، وما دروا بحقيقة إسلامه، ومرامي دعوته، حتى زكمت رائحته الأنوف،

واستبان الصبح لذي عينين.

وهذه الصفحات دراسة علمية استقرائية لمقولات جارودي، وتوصيفه للإسلام الذي اخترعه، وتمييزه عن الإسلام الذي اختطفه. كما أنها تتضمن دراسة ميدانية، وقف عليها الباحث، في أكبر إنجاز مادي حققه جارودي للتعبير عن فكرته، يتمثل في متحف «القلعة الحرة» جوار جامع قرطبة، في الضفة المقابلة من النهر الكبير.

وهي، بالإضافة إلى المعالجة الخاصة لإسلام جارودي، تنبه على خطورة الانسياق خلف كل ناعق يدعي الإسلام، وتدعو للتمسك بالكتاب، والاعتصام بالسنة، ولزوم سبيل سلف الأمة.

اللهم ألزمنا كلمة التقوى واجعلنا أحق بها وأهلَها، ولا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لَّدُنك رحمة إنك أنت الوهاب.

كتبه

د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة القصيم

٢٠/ ٤/ ١٤٣٧ هـ

التمهيد

تمثل محاولات الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي (Roger Garaudy) واحدة من أخطر المحاولات الفردية في العصر الحديث، وتحديداً في القرن العشرين، للتقريب بين الأديان. وتكمن خطورتها في كونها تتجاوز المحاولات التقليدية السائدة التي تدعو إلى فهم الآخر، واحترامه، والبحث عن نقاط الاتفاق والقيم المشتركة، إلى محاولة القضاء على مدلول «الإسلام الخاص» الذي جاء به محمد ﷺ، في سبيل بعث فكرة «الإسلام العام» أو «الإبراهيمية» التي تجمع - بزعمه - الإسلام والنصرانية واليهودية، بل ما هو أبعد من ذلك، بالانغمار في بحر الحكمة الذي يشمل الديانات الأخرى؛ من هندوسية وبوذية وكونفوشية، وسائر ما أوحت به شياطين الإنس والجن، بدعوى أنها آثار نبوة سالفة، وبقايا وحي قديم، كما سنعرض لاحقاً.

ومما زاد الأمر خطورة أن صاحب هذه المحاولات عمل من خلال الانتماء للإسلام ودعوى اعتناقه، لا من موقع مقابل، يقتضي الحذر الفطري. وكان لما يتمتع به من مكانة عالمية في الفكر والفلسفة، وثقافة موسوعية، وتجارب فكرية مع مختلف الأيديولوجيات، أثرٌ كبير في

تسويق آرائه الكفرية، واعتلائه أعلى المنابر الإسلامية، والاحتفاء به في سائر البلدان الإسلامية، بدوافع عاطفية، أو مصلحية فاسدة، افتقرت إلى التروِّي والأناة، والفحص والتدقيق.

وقد تقدم روجيه جارودي منذ أشيع نبأ إسلامه عام ١٩٨٢م بمشروع واضح المعالم ضمَّنه كتاباته الأولى في مجال «الإسلام»، وظل أميناً له لم يحِد عنه، كما تنطق بذلك أُخريات كتبه، التي يبشر بها روجيه جارودي النصراني، الماركسي، الصوفي، الوجودي... إلى ما شاء الباحث من ألقاب يتسع لها فكر هذا الفيلسوف.

وحينما زكمت رائحة زندقته الأنوف، ولم يستطع من كانوا يسترون سوأته عن الأمة بأنواع التأويلات والمماحكات اللفظية، طمعاً في مصالح مزعومة موهومة، قيل: إنه «ارتد» عن الإسلام! لكن الراسخون في العلم قالوا غير ذلك، وصدقوا، قالوا: «لا يحكم عليه بأنه (مرتد) عن دين الإسلام، كما توهمه بعضهم، وإنما هو كافر أصلي لم يدخل في الإسلام.»[1]

---

(١) من بيان لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله في مجلة الدعوة، عدد ١٥٨٣، الخميس ١ ذي الحجة عام ١٤١٦هـ الموافق ١٨ إبريل عام ١٩٩٦م (١٤ - ١٥).

ونتناول فيما يأتي دراسة هذه المحاولة الخطيرة، وصاحبها من خلال:

١. تعريف موجز، وسيرة ذاتية لروجيه جارودي، وأطوار حياته، وما صاحب ذلك من إنتاج فكري وعملي.

٢. دراسة مشروع روجيه جارودي الفكري للتقريب بين الأديان، والحضارات.

٣. محاولات روجيه جارودي العملية للتقريب بين الأديان والحضارات.

أولاً: السيرة الذاتية لروجيه جارودي

ولد روجيه جان شارل جارودي في السابع عشر من شهر يوليو عام ١٩١٣م في مدينة مرسيليا الفرنسية، لأسرة ملحدة لا تنتمي إلى دين، ثم اعتنق البروتستانتية؛ وانضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي في سنة واحدة ١٩٣٣م، دون أن يرى في ذلك تناقضاً. يقول واصفاً تلك المرحلة: «... لم أكن في يوم من الأيام ملحداً حتى عندما كنت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي في عام ١٩٣٣م، لقد كنت في الوقت نفسه رئيس الشبان المسيحيين البروتستانت، وانتسبتُ للحزب الشيوعي كمسيحي، هذا اتفاق مع النظرية التي تقول: إن الشيوعية إنجاز نصراني لمعالجة القضية الاقتصادية، وفي الحقيقة لم أكن مسيحياً بالميلاد، لأن أبوَيَّ لم يكونا كذلك، لقد كانا ملحدين، ليس بسبب ارتباطهما بالشيوعية أو أي مذهبٍ آخر، ولكنهما كانا من الأجيال التقليدية...

في عام ١٩٣٣م عانت أوروبا من أزمة كبيرة، استمرت حتى عام ١٩٣٩م، وهي الفترة نفسها التي شهدت صعود هتلر إلى السلطة، وشهدت اختياري الأول – وكنت في

هذه المرحلة لا أزال طالباً – ويرجع السبب في اختياري النصرانية إلى رغبتي في أن أعطي لحياتي معنىً في وقتٍ كنا نعتقد – لشدة الأزمة – أننا نعيش نهاية العالم.

أما الشيوعية، فقد كانت الاختيار الوحيد الذي يطرح بديلاً للخروج من أزمة الرأسمالية، كما أنه أفضل جبهة تقاوم هتلر والنازية في هذه الفترة.»[1]

وفي عام ١٩٣٦م حصل على إجازة «الفلسفة» بعد دراسة في كلية الآداب بأكس، ثم ستراسبورغ، فعُين مدرساً للفلسفة في مدرسة «إلبي».

وفي عام ١٩٣٧م انتُخب عضواً في فيدرالية تارن الشيوعية.

وحين عصفت رياح الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، واحتلت ألمانيا الهتلريةُ فرنسا، وأقامت حكومة موالية لها، كان جارودي جندياً في الجزائر التي كانت مستعمرة فرنسية، فاعتقل بسبب نشاطه الثوري المعادي للهتلرية، ونُفي إلى معتقل في منطقة «جلفا» في الصحراء الجزائرية، وذلك في عام ١٩٤٠م، فكان

(١) من مقابلة مع مجلة الأمة. العدد ٢٩ جمادى الأولى عام ١٤٠٣هـ فبراير عام ١٩٨٣م.

أولَ اتصالٍ له بالإسلام. ويصف جارودي حدثاً رسخ في ذاكرته تلك الفترة، وظل يردده في كتبه ومقابلاته، فيقول: «بقيت رهن الاعتقال حتى نهاية الحرب العالمية الثانية في معسكر بمنطقة جلفا بالصحراء الجزائرية. وهناك وقع حادث عجيب فعلاً، فقد تزعمتُ تمرداً في معسكر الاعتقال، وأجرى الكوماندور الفرنسي، قائد المعسكر، محاكمة سريعة، وأصدر حكماً بإعدامي رمياً بالرصاص، وأصدر أوامره بتنفيذ ذلك إلى الجنود الجزائريين المسلمين، وكانت المفاجأة عندما رفض هؤلاء تنفيذ إطلاق النار، ولم أفهم ما السبب لأول وهلة، لأنني لا أعرف اللغة العربية، وبعد ذلك علمت من (مساعد) جزائري بالجيش الفرنسي كان يعمل في المعسكر أن شرف المحارب المسلم يمنعه من أن يطلق النار على إنسانٍ أعزل...وكانت هذه أول مرة أتعرف فيها على الإسلام من خلال هذا الحدث الهام في حياتي. وقد علمني أكثر من دراسة عشر سنوات في السوربون

وعندما أطلق سراحي، بقيت في الجزائر مدة عام، وخلاله التقيت برجل عظيم، كان له أكبر الأثر في نفسي،

هو الزعيم الإسلامي الشيخ البشير الإبراهيمي[1] – رئيس رابطة العلماء المسلمين الجزائريين...

وفي مقر الشيخ الإبراهيمي لاحظت صورة كبيرة لرجلٍ مهيب، ولأول مرة أتعرف على صاحبها، عندما شرح لي الشيخ البشير جوانب من حياة الأمير عبد القادر الجزائري[2]

---

(١) البشير الإبراهيمي: ولد عام ١٨٨٩م في قرية «سيدي عبدالله» من نواحي «سطيف»، التابعة لمدينة قسنطينة في الجزائر. وتلقى تعليمه الأولي على والده وعمه فحفظ القرآن، ودرس بعض متون الفقه واللغة. وتابع تعليمه في المدينة النبوية عام ١٩١١م، وتعرف فيها على الشيخ عبد الحميد بن باديس عندما زار المدينة عام ١٩١٣م. وارتحل إلى دمشق عام ١٩١٦م للتدريس، وشارك في تأسيس المجمع العلمي. وعاد إلى الجزائر عام ١٩٢٠م وأسس مع ابن باديس جمعية العلماء عام ١٩٢٤م، وصار نائباً لرئيسها، واشتغل بالدعوة، ونشر العلم الشرعي، ومنابذة البدع، والاستعمار الفرنسي. حتى نفته فرنسا عام ١٩٣٩م إلى بلده «أفلو» الصحراوية، ولم يفرج عنه إلا عام ١٩٤٣م وانتخب رئيساً للجمعية بعد وفاة ابن باديس عام ١٩٤٠م وهو في المنفى.
وقد اعتقل ثانية عام ١٩٤٥م، وأفرج عنه بعد سنة. أصدر مجلة «البصائر» نقد فيها فرنسا وعملاءها. توفي - رحمه الله - عام ١٩٦٥م. انظر: مجلة البيان، عدد ١٣ ذي الحجة ١٤٠٨هـ (١٣ – ١٥).

(٢) عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسيني الجزائري (١٢٢٢ – ١٣٠٠هـ)، أمير مجاهد من العلماء الشعراء البسلاء. قاتل الفرنسيين بعد احتلالهم الجزائر عام (١٢٤٦هـ - ١٨٤٣م) خمسة عشر عاماً، حتى استسلم سنة (١٢٦٣هـ - ١٨٤٧) بعد مهادنة سلطان المغرب إياهم، فنفي إلى طولون ثم إلى أنبواز في فرنسا، وأطلقه نابليون الثالث على أن لا يعود إلى الجزائر، فاستقر في دمشق، وتوفي فيها، من آثاره: ذكرى العاقل، ديوان شعر، والمواقف في التصوف. انظر: الأعلام (٤/ ٤٥ – ٤٦).

- عدو فرنسا- كبطلٍ محارب، وعابدٍ ناسك، بل واحدٍ من أعظم أبطال القرن التاسع عشر...

ويعتبر هذا الدرس – من الشيخ الإبراهيمي بالنسبة لي – المرة الثانية التي ألتقي فيها بالإسلام.»[1]

وقد اختتم جارودي هذا اللقاء بالإسلام بتأليف كتابٍ، لعله أقدم كتبه على الإطلاق، عنوانه «الإسهام التاريخي للحضارة العربية الإسلامية» (*Contribution historique de la civilisation arabe*)، بعد إطلاق سراحه عام ١٩٤٣م، وأثناء عمله في مدرسة «دولاكروا»، وإدارته لمجلة «الحرية» في الجزائر، وقد طبع لاحقاً عام ١٩٤٦م، ثم طوى ذكر «الإسلام» وعاد إلى موطنه عام ١٩٤٤م.

وهكذا وُضعت بذور الاتجاهات الثلاثة المتغايرة؛ الماركسية، والنصرانية، والإسلام، في عقل هذا المفكر في العقود الثلاثة الأولى من عمره (١٩١٣ – ١٩٤٣م) لتنمو وتظهر في فترات لاحقة، تخلل بعضها «بيات شتوي» ربما كان عفوياً، وربما كان مبيتاً.

---

(١) من مقابلة مع مجلة الأمة. العدد ٢٩ جمادى الأولى عام ١٤٠٣هـ، فبراير عام ١٩٨٣م.

أما المرحلة التالية، فقد امتدت من عام ١٩٤٤م إلى عام ١٩٧٠م، وهي الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، وشهدت سباقاً محموماً بين المعسكرين الشرقي، بقيادة الاتحاد السوفيتي ودول أوربا الشرقية «حلف وارسو»، والمعسكر الغربي، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوروبا «حلف الأطلسي»، أو ما عرف بالحرب الباردة، وعلى الصعيد الفكري: الصراع بين الفكر الشيوعي والفكر الرأسمالي، فكان روجيه من أقطاب الفكر الشيوعي ومنظريه خلال هذه الفترة، فتفرغ لخدمة الحزب الشيوعي الفرنسي بعد عودته من الجزائر، على مستويين:

فعلى مستوى العمل الحزبي: انتخب نائباً في البرلمان عن منطقة تارن للفترة ١٩٤٥ – ١٩٦٢م، وعضواً في مجلس الشيوخ كممثل لمنطقة السين عام ١٩٥٩م لمدة ثلاث سنوات.

كما طاف معظم دول أمريكا اللاتينية عام ١٩٤٩م، واتصل بالحركات الثورية هناك، وأمضى عاماً في الاتحاد السوفيتي كمراسل لجريدة «لومانيتيه» (*L'Humanité*) ١٩٥١م. وزار كوبا الشيوعية عام ١٩٥٤م، ثم الولايات المتحدة عام ١٩٥٥م.

كما أسس في مطلع الستينيات «مركز الدراسات والبحوث الماركسية» التابع للحزب الشيوعي الفرنسي وأداره عشر سنين.

وعلى المستوى الفكري: أعد رسالَتَي دكتوراه، إحداهما في جامعة السوربون الفرنسية بعنوان «النظرية المادية في المعرفة» (*Théorie matérialiste de la connaissance*) عام ١٩٥٣م، والثانية في معهد الفلسفة في أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي بعنوان «الحرية» (*La Liberté*) عام ١٩٥٤م.

كما أصدر أكثر من عشرين كتاباً في الفكر الماركسي، والاشتراكية الفرنسية، على مدى عشرين سنة، ينافح فيها عن الشيوعية ويمجد رموزها. إلا أن بيان الأمين العام للحزب الشيوعي السوفيتي الرئيس خروتشوف، في المؤتمر العشرين للحزب عام ١٩٥٦م، سبب له صدمة عنيفة بسبب ما كشف من جرائم ستالين، وممارسات الحزب الوحشية، فاتسمت مؤلفاته الأخيرة بروح النقد والاحتجاج، مثل:

«هل يمكن للمرء أن يكون شيوعياً في يومنا هذا؟» (*Peut-on être communiste aujourd'hui?*) عام ١٩٦٨م، «منعطف الاشتراكية الكبير» (*Le Grand*

tournant du socialisme) عام ١٩٦٩م، فيما عرف بتجديد الفكر الماركسي، مما أدى إلى تفاقم خلافاته مع الحزب الشيوعي الفرنسي، فوضع حداً لذلك بتأليف كتابه «الحقيقة كلها» (*Toute la vérité*) عام ١٩٧٠م، وتم فصله من الحزب. وقد كان وقعُ ذلك شديداً عليه إلى الحد الذي جعله يفكر في الانتحار.»[1]

أما المرحلة التالية التي أعقبت تحرره من الإسار الحزبي، فكانت بداية مشروعه الوحدوي العالمي لتوحيد الأديان والثقافات والفلسفات المختلفة، الذي نحن بصدد مناقشته، فأكب على دراسة الكتب المقدسة لدى مختلف الطوائف، وعمل على إحياء التراث الروحي للثقافات غير الأوربية من كونفوشية وطاوية وهندوسية وبوذية بالإضافة إلى اليهودية والإسلام. وأصدر في تلك الفترة التي شغلت عقد السبعينات عدة كتب في هذا الاتجاه: «البديل» (*L'Alternative*) عام ١٩٧٢م، ويتضمن تحليلاً لدور الدين في التغيير، كما يحتوي بعض إرهاصات مشروعه المستقبلي المتمثل في «حـوار الحضارات»، و«مشروع الأمل» (*Le Projet espérance*) عام ١٩٧٦،

---

(١) انظر: روجيه جارودي، والمشكلة الدينية. محسن الميلي. تقديم: روجيه جارودي. دار قتيبة. بيروت – دمشق. الطبعة الأولى عام (١٤١٣هـ – ١٩٩٣م). (٣٢).

و«في سبيل حوار بين الحضارات» (*Pour un dialogue des civilisations*) عام ١٩٧٧م، و«نداء إلى الأحياء» (*Appel aux vivants*) عام ١٩٧٩م.

وخلال هذه الفترة أسس روجيه جارودي «المعهد الدولي للحوار بين الحضارات» في جنيف عام ١٩٧٤م، ويصف فكرته قائلاً: «قمت بالتعاون مع مسؤول منظمة اليونسكو بتأسيس (المعهد الدولي لحوار الحضارات) بهدف إبراز دور البلاد غير الغربية، وإسهامها في الثقافة العالمية، حتى يتوقف الحوار ذو البعد الواحد من جانب الغرب، أو (المونولوج) الذي يقوم على وهم عقدة تفوق الإنسان الغربي. وقمت بنشر عدة كتب في هذا المجال تبرهن أن الحضارة الغربية التي تمجد الفردية، وتبتر من الإنسان أبعاده الإنسانية، وتفصله عن السمو الروحي، وتغتال الفكرة الجماعية، وتضع حاجزاً بين العلم والتقنية من ناحية، وبين الحكمة من ناحية أخرى، هذه الحضارة قد استنفدت أغراضها، ولم تعد لها ضرورة»[1].

وقد ظل جارودي يردد هذه المعاني دون انقطاع، ووجد في الحضارة الإسلامية التي أُلِّفت بين العلم والعقيدة

---

(١) من مقابلة مع مجلة الأمة عدد ٢٩ جمادى الأولى عام ١٤٠٣هـ فبراير عام ١٩٨٣م.

ضالته، فطفق يشيد بها، ودخل من بوابة الأندلس إلى عالم الإسلام الرحيب، معجباً بمآثره الحضارية؛ الثقافية والاجتماعية والمعمارية والروحية، وقدرة هذا الدين على استيعاب الآخرين وإدماجهم في مجتمعه، ورأى – بصورة انتقائية – في بعض أصوله، وتراث بعض أتباعه والمنتسبين إليه، ما يمثل إطـاراً للحلم الذي ظل يداعب مخيلته الشمولية في وحدة العالم.

وبذلك يكون جارودي قد تهيأ لولوج مرحلة جديدة في نظر الآخرين، وهي المرحلة الإسلامية، وإن كان لا يراها هو بنفس المنظار كما سيتبين.

في مطلع الثمانينيات، وبعد اطلاع واسع على التراث الروحي والحضاري لمختلف الأمم والشعوب التي تقطن أركان الأرض، من خلال مشروع «الحوار بين الحضارات» أصدر جارودي كتابين عن «الإسلام»:

أحدهما: «ما يَعِد به الإسلام» أو «وعود الإسلام» (*Promesses de l'Islam*) عام ١٩٨١م. **والثاني:** «الإسلام دين المستقبل» أو «الإسلام يسكن مستقبلنا» (*L'Islam habite notre avenir*) عام ١٩٨٢م، ينتقد فيهما النظرة الغربية الإقصائية والتشويهية للإسلام، ويكشف عن

قدرته على حل مشاكل العالم الراهنة، ولكنهما حملا أيضاً انحرافاتٍ فكرية خطيرة ظلت تصاحب جارودي في كتاباته التالية.

وإثر صدور هذين الكتابين أعلن نبأ اعتناق روجيه جارودي للإسلام عام (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م). ولكنه دأب على إنكار أن يكون قد وقع له «تحول» (conversion) بالمعنى المعهود، بل يدفع هذه الفكرة في العديد من كتبه ومقابلاته الصحفية، فعلى سبيل المثال: «يقول البعض عني اليوم بأنني اكتشفت الدين مؤخراً. ليس صحيحاً. الدين كان حاضراً في وعيي منذ البداية. الدين كإيمان جوهري، لا كنصوص حرفية وطقوسٍ محددة... لقد لازمني هذا الإيمان في أشد مراحل التزامي بالماركسية.»[1] ويقول: «إن تحولي نحو الإسلام لم يكن محطة في طريق، بل كان الطريق كله.»[2] وهذا ملحظ ينبغي أن يتفطن له من يذيع البشائر بإسلام جارودي بعبارات لا يرتضيها جارودي نفسه ولا يقرها.

وإثر إعلان نبأ إسلامه قام جارودي ببعض الخطوات «الإسلامية»:

---

(١) المرجع السابق (١٢٢).

(٢) من مقابلة مع مجلة الموقف العربي، ديسمبر عام ١٩٨٧م.

▪ تزوج السيدة «سلمى بنت نور الدين التاجي الفاروقي» في نهاية شهر رمضان من العام التالي لإسلامه ١٤٠٣هـ، الموافق ١٩٨٣م. وهي فلسطينية مقيمة في جنيف، التقت به في ندوة عامة، وحاورته في كثير من آرائه حول الحضارة الغربية والدين الإسلامي.[١] وكان لها دورٌ في إشهار إسلامه مع الدكتور مدحت شيخ الأرض في المؤسسة الثقافية الإسلامية في جنيف. وقد رافقته في العديد من رحلاته إلى البلدان العربية، وقامت بدور المترجم في المؤتمرات والمقابلات واللقاءات التي أجراها. يقول عنها جارودي: «رأيت فيها صورة حية للإسلام وسط محيط أوربي. صحيح أنني زرت عدة بلاد إسلامية... ولكنني لم أكن أقترب كثيراً من العلاقات الحياتية للإنسان المسلم»[٢].

▪ أدى مناسك العمرة عام ١٩٨٣م برفقة زوجته.

▪ زار كلاً من لبنان وسوريا في مارس ١٩٨٤م، والتقى الشيخ أحمد كفتارو مفتي سوريا، وألقى بعض المحاضرات.

---

(١) انظر: روجيه جارودي. من الإلحاد إلى الإيمان. (٣٩ – ٤٠).

(٢) من مقابلة مع مجلة الأمة. عدد (٢٩) جمادى الأولى ١٤٠٣هـ فبراير ١٩٨٣م.

▪ شارك في «المؤتمر الأول للمسلمين الأوربيين» في مدينة «إشبيلية»، في الفترة ١٩ – ٢١ يوليو عام ١٩٨٥م، وأصدر «ميثاق إشبيلية» (*Charte de Séville*) الذي ضمنه بعض انحرافاته الفكرية تجاه الإسلام.

▪ زار عدداً من دول الخليج العربي، والمملكة العربية السعودية، حيث حضر:

١. المؤتمر السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامي حول «الأقليات المسلمة في العالم»، المنعقد في الرياض في الفترة ١٢ – ١٧ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ، الموافق ٢٢ – ٢٧ يناير ١٩٨٦م، وشارك فيه بإلقاء محاضرة بعنوان: «دور الاستراتيجية الصهيونية في الصراع العقائدي في الغرب، وكيفية مواجهته»[١] مساء يوم ١٦/ ٥/ ١٤٠٦هـ.

٢. احتفالات مؤسسة الملك فيصل الخيرية بمناسبة عشرة أعوام على إنشائها، وتسليمه جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام لعام ١٤٠٦هـ، مناصفة مع الشيخ الداعية «أحمد حسين ديدات»

---

(١) انظر نص المحاضرة في المجلد الثالث لأعمال المؤتمر (١٣٧٤ – ١٣٥٩).

من جنوب أفريقيا. وقد جاء قرار الأمانة العامة للجائزة، مسوغاً إياها بثلاثة أسباب:

أ - إصداره الكتب التي تبرز صورة أمينة للإسلام. مثل «الإسلام يسكن مستقبلنا» و«وعود الإسلام»...

ب - دفاعه عن فلسطين وأهلها دفاعاً مجيداً في مواقفه المختلفة...

ج - مشاركته في العديد من المؤتمرات العالمية التي يوازن فيها بين الحضارات، وينوِّه بالمبادئ والأصول الإسلامية، ويؤكد أن التزامها كفيل بالوصول إلى الخلاص من الويلات التي تهدد العالم.»[1]

كما ألقى محاضرة بعنوان «كيف أسلمت؟» مساء اليوم الأول من رجب عام ١٤٠٦هـ.

▪ زار مصر في أغسطس عام ١٩٨٦م، وحاور علماء الأزهر.

▪ شارك في الملتقى الإسلام في الجزائر حول الإسلام والعلوم الإنسانية، المنعقد في مدينة «سطيف» عام ١٩٨٦م، وطرح بعض أفكاره الشاذة، ونوقش من قبل

---

(١) مجلة الفيصل. عدد (١٠٧) (١٤٠ - ١٤١).

بعض العلماء المشاركين.[1]

▪ أسس مركزاً للبحوث والدراسات الإسلامية، ومتحفاً في القلعة الحرة، الواقعة قريباً من جامع قرطبة، عام ١٩٨٦م.

▪ وخلال هذه الفترة ألف عدداً من الكتب التي تحمل فهمه وتصوره عن الإسلام ومستقبله منها: «المسجد مرآة الإسلام» (*Mosquée miroir de l'islam*) عام ١٩٨٤م، «الإسلام وأزمة الغرب» عام ١٩٨٥م، «من أجل إسلام القرن العشرين» (*Pour un Islam du xxe siècle*) أو «ميثاق إشبيلية» عام ١٩٨٥م، «الأصوليات المعاصرة» عام ١٩٩٠م، «هل نحن بحاجة إلى الله؟» (*Avons-nous*

---

(١) في «الملتقى الإسلامي العشرون» في مدينة سطيف في الجزائر أغسطس عام ١٩٨٦م عرض جارودي أمام علماء المسلمين خمس نقاط خطيرة:

١ - تطوير التشريع الإسلامي ليلائم العصر.

٢ - مهاجمة العصر الأموي والعباسي.

٣ - الإشادة بـ «سارتر» والفكر الوجودي، والدعوة للأخذ منه في بناء منهج إسلامي للعلوم الإنسانية، وكذلك ماركس وأفكاره.

٤ - تحسين التصوف، وتمجيد القائلين بالحلول ووحدة الوجود.

٥ - دعوته إلى الموسيقى.

وقد هزت هذه المحاضرة دوائر الملتقى، وطلب الردَّ عليه سبعةٌ وثلاثون باحثاً، ونُصح بعدم الخوض فيما لا يعرف، وأن يقتصر على فضح الحضارة الغربية، انظر: تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة (١٧٥ - ١٧٦).

(*L'Islam besoin de Dieu?*) عام ١٩٩٣م، «الإسلام» (*Vers une guerre de religion? Débat du siècle*) عام ١٩٩٦م، «نحو حرب دينية. جدل العصر» عام ١٩٩٦م. وإلى جانب هذه الكتب أصدر في مرحلته «الإسلامية» هذه جملة من الكتب المناهضة للصهيونية ودولة إسرائيل من أهمها:

١ - كتاب «ملف إسرائيل» أو «قضية إسرائيل والصهيونية السياسية» (*L'Affaire Israël: le sionisme politique*) عام ١٩٨٢م. وقد امتنعت كثير من دور النشر الكبرى التي دأبت على التنافس على طبع كتبه، من نشره. وأتبعه بالتوقيع على بيانٍ مشترك مع الأب ميشال لولون، والقس إيتان ماتيو، نشر في جريدة «لوموند» الفرنسية الواسعة الانتشار، بعنوان «معنى العدوان الإسرائيلي بعد مجازر لبنان»، فقامت منظمة صهيونية برفع دعوى ضد موقعي البيان، ومدير الجريدة، بتهمة معاداة السامية، والتحريض على العنصرية. ودامت المحاكمة أشهراً، وحسمت لصالح جارودي ورفاقه بالحكم بأن: «انتقاد الصهيونية شيء لا علاقة له باللاسامية، ولا بمعاداة اليهود، لأن اليهودية دين سماوي، أما الصهيونية فهي حركة سياسية.»[1]

(١) انظر: روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (٣٠ - ٣٣، ١٠٥ - ١١٣).

٢ - كتاب: «فلسطين مهد الرسالات السماوية» (*Palestine Terre des messages divins*) ١٩٨٦م، وهو يمثل دراسة تاريخية موثقة لفلسطين تبطل المزاعم الصهيونية بـ«الحق التاريخي» لليهود موثقة في فلسطين. كما يحمل فكرة «الإبراهيمية» التي ظل يعمل من أجلها.

٣ - كتاب: «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» (*Les Mythes fondateurs de la politique israélienne*) عام ١٩٩٦م يحتوي على ثلاثة فصول: الأساطير اللاهوتية، أساطير القرن العشرين، الاستخدام السياسي للأسطورة، مع مقدمة وخاتمة. هاجم فيها الأسس الدينية والتاريخية والمعاصرة التي قامت على أساسها دولة إسرائيل، وخرافات الإبادة الجماعية لليهود على يد النازية.

وكان اللوبي اليهودي في فرنسا قد نجح عام ١٩٩٠م في استصدار قانون، عرف بـ«قانون فابيوس-جيسو» (*loi Fabius-Gayssot*)، يعتبر أن «إعادة النظر في تاريخ اليهود جريمة ضد الإنسانية»[١]. وبالتالي قُدم جارودي للقضاء إثر صدور هذا الكتاب، وقضت محكمة الجزاء

---

(١) انظر: مقدمة الطبعة العربية لكتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» للناشر حمدان جعفر. مدير عام دار الغد العربي (٨).

الفرنسية في باريس يوم ٢٧ فبراير عام ١٩٩٨م بتغريمه مبلغ ١٢٠ ألف فرنك فرنسي (٣٠ ألف دولار) بموجب ذلك القانون[١].

وبعد، فهذه معالم بارزة في شخصية هذا الفيلسوف المفكر الذي يصدق عليه الوصف «مالئ الدنيا وشاغل الناس.»[٢] وقد توفي روجيه جارودي عام ٢٠١٢ م، ولا يزال مثار جدل ونقاش. وقد بلغ ما ألفه من الكتب أكثر من خمسة وخمسين كتاباً، سوى المقالات والمحاضرات. تُرجم بعضها إلى أكثر من اثنتين وعشرين لغة عالمية، وسائرها إلى ثلاث لغاتٍ على الأقل، هذا مع المواقف العملية الملتزمة تجاه ما يعتقد، كما كُتب عنه أكثر من ثلاثين

---

(١) انظر الصحف الصادرة في ٢٨ فبراير ١٩٩٨م، ومجلة «العالم» العدد الأول، صفر ١٤١٩هـ، يونيو ١٩٩٨م (٢٤).

(٢) انظر في ترجمته وتحليل أبعاد شخصيته:

غارودي – سلسلة أعلام الفكر العالمي. تأليف سيرج بيروتينو. ترجمة منى النجار «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» ١٩٨١م.

روجيه جارودي والمشكلة الدينية. تأليف محسن الميلي. قتيبة – بيروت ١٤١٣هـ. وقد امتدح جارودي نفسه هذه الدراسة، وفضلها على تسع عشرة أطروحة عنه.

مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية. المبحث العاشر (٣٤٢ – ٣٨٢). تأليف د. محمد بن عبدالله السحيم. دار الفرقان – الرياض ١٤١٨هـ وغيرها.

كتاباً.[1]

فهل أسلم روجيه جارودي حقاً؟ وهل وصل بعد «جولته وحيداً هذا القرن»[2] إلى بر الأمان، وذاق حلاوة الإيمان، وبرد اليقين، كما يعبر بعض الصحفيين المسلمين؟ وهل تخلى روجيه جارودي عن ماركسيته؟ وقبل ذلك هل تخلى عن نصرانيته؟

والجواب عن هذه الأسئلة: ندعه لجارودي نفسه، من خلال تصريحاته، وأجوبته على أسئلة الصحفيين. ومن شواهد ذلك:

▪ قال في مقابلة مع جريدة «البعث» السورية في ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م:

«إنني عندما أعلنت إسلامي لم أكن أعتقد بأني أتخلى عن مسيحيتي، ولا عن ماركسيتي، ولا أهتم بأن يبدو هذا متناقضاً أو مبتدعاً.»[3]

---

(١) انظر مسرداً تفصيلياً بأعمال جارودي والدراسات التي تناولته في ذيل كتابيه الجديدين: الإسلام، نحو حرب دينية: جدل العصر. دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت ١٩٩٦م. وكذلك في ذيل كتاب روجيه جارودي والمشكلة الدينية.

(٢) اسم كتاب لجارودي صدر عام ١٩٨٩م (بالفرنسية: *Mon tour du siècle en solitaire*).

(٣) روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (٢٠٠).

▪ قال في مقابلة مع جريدة تشرين السورية في ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م:

«أحب هنا أن أؤكد بأني لم أدر ظهري للماركسية على الإطلاق، ولم أقل ذلك... إنني أشعر وأنا أعيش تجربتي، ومسيرة حياتي، ورحلتي منذ ١٩٣٣م حتى الآن؛ بأن إيماني بالإسلام هو إنجاز وليس انشقاقاً، في الوقت الذي لا أنكر فيه المسيح ولا ماركس[١]، ولا قضية حياتي المركزية. وأنا سعيد الآن وأنا في السبعين من عمري لأنني بقيت مخلصاً لأفكاري.»[٢]

أما ثناؤه على ماركس والماركسية فلم ينقطع، ولا يكاد يخلو منه كتاب من كتبه الأخيرة ومقابلاته، من جنس قوله: «... ماركس هو أحد كبار مفكري القرن التاسع عشر، وهو رجل عبقري كان يملك القدرة على التفكير والعمل... الماركسية أساساً هي منهجية الابتكار التاريخي، أي أنه في الوقت نفسه يجتمع العلم والفن

---

(١) ماركس (كارل) (١٨١٧ - ١٨٨٣): ولد في تريف (ألمانيا)، من رجال السياسية والفلسفة الاجتماعية. حرر «البيان الشيوعي» بالتعاون مع «إنجلز»، وأسس «الدولية الأولى». له «رأس المال» وهو عرض لنظريته، أصبح فيما بعد دستور الماركسية والنظام الشيوعي. المنجد في الأعلام (٦٢٦).

(٢) روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (٢٠٠).

لتحليل المتناقضات في مجتمع ما، وفي زمن محدد، وانطلاقاً من تحليل هذه المتناقضات يتم اكتشاف البرنامج والخطة الجديرة بتجاوز هذه المتناقضات، هذه هي روح الماركسية التي تمثل ما قدمه (ماركس) من إنتاج خالد.»[1]

وظل جارودي يشيد بأفكار ماركس الاقتصادية، ويلقي اللائمة على الأتباع الذين أخطؤوا التطبيق، وخانوا الماركسية، من السوفيات، وفي واحدٍ من أخريات كتبه قبل سُنيَّات.[2]

لقد ظل جارودي أميناً لعقيدته ذات الوجهين (الماركسي - البروتستانتي) ولم يحد عنها، ففي كتاب من كتبه، صدر عام ١٩٩٦م يشير جارودي إلى إبرام اتفاقٍ ثنائي بينه وبين أحد كبار لاهوتيِّي التحرر[3] في أمريكا اللاتينية، فيقول:

---

(١) من مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م. عن روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (١٧٨ - ١٧٩).

(٢) انظر: كتابه «نحو حرب دينية» (٥٤ - ٧٢).

(٣) «لاهوت التحرر»: يطلق هذا المصطلح على الحركة الكنسية التي قام بها أساقفة أمريكا الجنوبية انطلاقاً من البرازيل في مطلع الستينيات حتى اجتاحت القارة كلها. وهي تنادي بتحرير الفقراء والوقوف مع المضطهدين، وانخراط الكنيسة في مجتمعات الفقراء الكادحة، مع حملة تعليمية، ورعاية اجتماعية. كونت ما عرف بـ «جماعات الكنيسة القاعدية». انظر: الحوار الإسلامي المسيحي. سعود المولى (٩٤ - ١١٤).

إن اللقاء بين «دوم هلدر كامارا» وبيني يؤذن بمرحلة عظيمة في حياتي. ويعود هذ اللقاء بالضبط إلى ٢٩ آيار ١٩٦٧م. كنت حينئذٍ عضو المكتب السياسي في الحزب الشيوعي الفرنسي، وكان هو رئيساً لأساقفة «ريسيف» في البرازيل. وكنا نشترك في جنيف في إحياء ذكرى الرسالة البابوية «السلام في الأرض».

ومنذ هذا اللقاء الأول قامت بيننا وحدة أخوية ولم تزل...

يروي «دوم هِلدر» في كتابه (*Les Conversions d'un évêque*) كيف بدأت علاقاتنا بـ «اتفاق»: روجيه، ليتنا نعقد اتفاقاً؟ أما أنت، فأنا أكلفك شيئين... اعمل بحيث يكف الماركسيون عن الربط بالضرورة بين الدين والاستلاب.[1] هذه هي النقطة الأولى. ومن ناحية أخرى، أتظن أن هناك علاقة ضرورية بين الاشتراكية والمادية، أم أن من الممكن، كما أعتقد أنا، أن يكون المرء اشتراكياً حقاً دون الانتماء إلى المادية الجدلية؟

أنا أتعهد، من جانبي، أن أبذل وسعي، وبأن أُوسط أشخاصاً آخرين أعظم نفوذاً مني، ليحصلوا من الكنيسة على قبول الاشتراكية...

لقد قبلت بالفعل، دون تحفظ، مطلَبَيْ (دوم هلدر)، وطلبت منه فقط ألا تستأنف عبارة البابا «بي الثاني عشر»: (الشيوعية فاسدة جوهرياً).

---

(١) «الاستلاب» بمعنى السلبية. أي كون الدين يثمر «السلبية» على حدّ عبارة الشيوعيين «الدين أفيون الشعوب». ويستعمل هذا المصطلح غالباً في مقابل «التحرر».

إن الرأسمالية بما فيها من مزاحمة الجميع، ضد الجميع، هي الفاسدة جوهرياً. والشيوعية والاشتراكية ليستا فاسدتين، إلا عندما يخونهما أنصارهما ذاتهم.

وهكذا أبرم الاتفاق، وما لبث أن وضع موضع التطبيق: ففي عام ١٩٧٠م، وبعد المؤتمر الأسقفي في «ميدلان» ١٩٦٨م، كتب دوم هلدر كامار أول كتابٍ حاسم «لولب العنف»...

في السنة نفسها التي ظهر فيها «لولب العنف» لدوم هلدر كامارا ١٩٧٠م، أُبعِدتُ من الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كنت أحد قادته ومنظّريه، لأنني قلت: إن الاتحاد السوفيتي ليس بلداً اشتراكياً، كان ذلك منذ أربعة وعشرين عاماً. لقد كنا نفي بالعهد الذي قطعناه على نفسَينا، رغم العقبات. ولم نزل.

من ناحيتي، أظهرتُ، أثناء الحوارات المسيحية الماركسية التي كنت المنظم لها منذ ١٩٦٠م [١]، وفي كل كتبي ومقالاتي حول الماركسية، أن الإلحاد لم يكن مكوناً ضرورياً من مكونات الاشتراكية، ولم يقم ماركس قط بنقدٍ فلسفي للدين، بل قام بنقدٍ سياسي.[٢]

---

(١) لا يغيب عن فطنة القارئ أن هذا التاريخ يسبق تاريخ الاتفاق المشير إليه سابقاً بسبع سنين مما يدل على أن الفكرة كانت معتمدة لديه من قبل، ولا تفتقر إلى إبرام اتفاق.

(٢) نحو حرب دينية. جدل العصر. روجيه جارودي. مقدمة: ليوناردو بوف. ترجمة: صياح الجهيم. دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع (٥١ - ٥٤).

تلك هي اعترافات جارودي إثر إشهار إسلامه بقرابة اثني عشر عاماً، يسوقها دون أن يجد في ذلك تناقضاً مع إسلامه الذي حاكه وفق قناعاته العقلية التي يرتضيها، لا كما أنزل على رسوله محمد ﷺ، ودون أن يرى أنه يفشي بذلك سراً، فقد دأب على ترديد عبارات الاستمساك بماضيه طوال الفترة اللاحقة لإسلامه المزعوم، وفي عقر دار المسلمين.

فهل يبقى شك عند مسلم أن الرجل لم ينعتق من ماضيه، ولم يسلم وجهَه إلى الله وهو محسن، بل أسلم وجهَه إلى عقله وهو مسيء، فاختار ما راق له من أصول الإسلام العظام، وأعرض عما لا يوافق مشروعه العقلي، تماماً كما صنع المتكلمون والفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام من قبله.

ومما يلفت النظر أن «شهادة إشهار إسلام» جارودي الصادرة عن المؤسسة الثقافية الإسلامية في جنيف في ١٤٠٢/٩/١١هـ ، الموافق ١٩٨٢/٧/٢م، خلت من توقيع صاحب الشأن، وحملت توقيع الشاهدين فقط.[1] وفي ظني أن جارودي لم يكن يستسيغ مثل هذه

(١) انظر: صورة من الشهادة في كتاب: روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان – إعداد رامي كلاوي – دار قتيبة (٣٢).

الإجراءات النمطية الشكلية، وأنه لم ير ذلك النموذج، أو رآه واستنكف أن يوقع عليه، بدليل أن النموذج يشير إلى أن دينه السابق هو «الكاثوليكية» وذلك خطأ واضح، إذ أخبر عن نفسه كما تقدم أنه قد اعتنق «البروتستانتية» عام ١٩٣٣م، بعد أن لم يكن «مسيحياً بالميلاد» كما قال.

وهذه النصوص التي سقناها آنفاً من كلامه عن نفسه كفاحاً، كافية للحكم عليه، أما تفاصيل مشروعه التوحيدي بين الأديان والوثنيات، ومفهومه للإسلام فبابٌ من أبواب الكفر واسع، وهو ما نعرض له الآن.

ثانياً: مشروع روجيه جارودي الفكري للتقريب بين الأديان

خلافاً لسائر المحاولات السائدة للتقريب بين الأديان التي تجري على حذر، وتتحاشى المساس بالمعتقدات الأساسية لدينٍ ما، أو تكتفي بمعالجة جانبية لموضوع من الموضوعات المشتركة بين ديانتين أو أكثر، تمثل محاولة المفكر الفرنسي روجيه جارودي مشروعاً فكرياً ذا صفة شمولية، واقتحامات جريئة لحدود الأديان، في سبيل تمييع تلك الحدود ضمن أطر قيمية، ومنظومة عالمية وحدوية تستوعب كافة الحضارات والديانات والتقاليد، متخذة من «الإسلام» الذي صاغه جارودي، المجرى الكبير الذي تصب فيه مختلف الروافد، وتمتزج به.

ويتضح ذلك عندما يتحدث جارودي عن بواعث اعتناقه للإسلام، فيقول: «الفكرة الأولى لعلاقات المسلمين مع بقية الطوائف الدينية في فكر ورأي النبي ﷺ[1]، كانت

---

(١) ما جاء به نبينا محمد ﷺ ليس مجرد «فكر» أو «رأي» كما زعم جارودي، بل هو اتباع الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. وقال: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠].

إقامة ما نسميه اليوم (وحدة فيدرالية) للطوائف الدينية. لكن حصل أن هذا الأمر لم يتحقق أبداً في التاريخ، لا في المسيحية، ولا في اليهودية أو في الإسلام. لكن أعتقد أن هذه المعادلة قابلة للعيش والاستمرار، أي أن تصل بنا إلى روابط الجماعة، وروابط الأرض، وروابط السوق المشترك، وحتى روابط الماضي والثقافة، وإقامة كل شيء على أساس المستقبل، أي على الإيمان المشترك بمعناه الأرحب والأوسع، وحتى الملحدين ممكن أن يكون لديهم إيمانٌ بالإنسان. وبإمكانهم إقامة طائفة دينية بالمعنى الذي قلناه فيما سبق لتعميق هذا الاحترام الأساسي للإنسان.

هكذا أعتقد ما هو ممكن. لكنني أعترف أن هذا أحد الأسباب التي جذبتني للإسلام. ذلك أن الإسلام هو أكثر الديانات جمعاً وتوحيداً للناس. وهو بمثابة (عصارة وزبدة الأديان).»[1]

أما السبب الآخر الذي جذبه للإسلام، فيعبر عنه بقوله:

إن ما كان يشغلني هو البحث عن النقطة التي يلتقي فيها الوجدان بالعقل، أو الإبداع الفني أو الشعري بالعمل السياسي العقيدي، وقد مكنني الإسلام بحمد الله من

---

(١) من مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م. عن روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (١٨١ – ١٨٢).

بلوغ نقطة التوحيد بينها... ويدعو القرآن الكريم إلى أن نكتشف في كل شيء وفي كل حدث إشارة للخالق ورمزاً لواقع يعلو النظام الفريد الذي يسوس الطبيعة والمجتمع الإنساني والنفس البشرية.[1]

لقد وجد جارودي في الإسلام ضالته، في اجتماع عناصر تفرقت في غيره. لقد اضطر قرابة أربعة عقود من عمره إلى الجمع بين النصرانية والماركسية، فيما بدا لغيره تناقضاً صارخاً، لكن في نظره أن أحدهما يمده بما لا يمده الآخر، مما لا غنى عنه، بينما يفتقر كل منهما على حدة إلى ما في الآخر. فظل ممسكاً «بطرفي السلسلة»، على حد تعبيره. «في عام ١٩٣٣م عندما أصبحت في ذات الوقت مسيحياً وعضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي، كان ذلك يعني أنني ألتزم بكوني مسيحياً بالسنة الإبراهيمية العريقة، التي تعطي حياتي معانيها وغاياتها، وألتزم بكوني ماركسياً بالجانب الآخر من المسألة، أي بالمنهج العملي التاريخي، الذي يعطيني وسائل وإمكانيات تحقق غاياتي الحياتية. وهذا يبدو لي أساسياً في الماركسية. أما في الإسلام فقد كان النبي في ذات الوقت رجل دولة.»[2]

---

(١) من مقابلة مع مجلة الأمة عدد (٢٩). جمادى الأولى ١٤٠٣هـ فبراير ١٩٨٣م.

(٢) جريدة «البعث» عدد ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م. عن: روجيه جارودي، من الإلحاد إلى الإيمان (٢٠٢ – ٢٠٣).

لم يجد جارودي في «النصرانية» ما يلبي طموحاته السياسية والاجتماعية، وإن وجد فيها أثاره من روحانية وأخلاق ومعنى، وهو ما لم يجده في الماركسية بتاتاً، وإن رأي فيها أحسن السيئ من النظريات السياسية والاجتماعية السائدة في أوربا؛ من نازية عنصرية، ورأسمالية أنانية جشعة، وقوميات ضيقة. فلفق من هذين الكائنين الخداج «عكازين» يسير بهما في رحلة حياته المضنية، بحثاً عن حلٍ أمثل لأزمة الإنسان المعاصر، ومشكلات الحضارة.

وحين أتيح له الاقتراب من التراث الإسلامي، بعد أن تحطمت آماله المعقودة على الاتحاد السوفيتي، وهوى صنم «ستالين» من مخيلته إثر خطاب خروتشوف الفاضح، وجد في الإسلام وأصوله ونظمه ما يشبع نهمته، ويروي غلته، ويطفئ لوعته، في تحقيق مشروع «مستقبل ذي وجه إنساني»[1]، ظل يرسم صورته، ويحدد أبعاده، في حقبة السبعينات من خلال «المعهد الدولي لحوار الحضارات»، وأصدر فيه بضعة كتب من مثل: «استعادة الأمل» (*Reconquête de l'espoir*) عام ١٩٧١م، «مشروع الأمل» عام ١٩٧٦م، «نداءٌ إلى الأحياء» عام ١٩٧٩م، «ما

(١) هكذا كان يسمي جملة من أبحاثه في الفترة التي تلت فصله من الحزب الشيوعي.

يزال في الوقت متسع للعيش» (*Il est encore temps de vivre*) عام ١٩٨٠م وغيرها.

ومن ثم فقد أقبل جارودي على الإسلام الذي وجد فيه العناصر الأساسية لمشروعه الوحدوي الإنساني، وقد بيت ما يريد، لم يعتنق الإسلام وهو مستعد للتلقي، فالقبول، فالتنفيذ، كما هو حال من يسلم وجهه لله، خالعاً على عتبة الإسلام كل ما كان من أمر الجاهلية، مطرحاً كل مقدمة، ووسيلة، ونتيجة، تخالف النص الإلهي والتوجيه النبوي. كلا، بل احتكم إلى عقله ورأيه وتجربته المتنوعة، فاعتقد ما يراه صواباً، ثم خاض في عالم الإسلام يصطفي، ويستبعد، ويقدم ويؤخر، ويعظم ويهون، وفق ما يناسب مشروعه في التقريب بين الأديان والثقافات.

وسنحاول في الصفحات التالية استبانة جارودي في توصيفه للإسلام الحي الذي «يسكن مستقبلنا»، و«ما يعد به الإسلام» الذي تخيله، بالإضافة إلى نقده التاريخي لمسيرة الإسلام وأهله، ورؤاه المستقبلية. وذلك من خلال أقدم كتاباته الإسلامية في منتصف الثمانينيات، وأحدثها في منتصف التسعينيات ليتضح جلياً ما سبق تقريره من أن جارودي دخل عالم الإسلام بمشروع مبيّت واضح المعالم والأبعاد، وظل مقيماً عليه، وأنه لم يطرأ عليه «ردة»

بعد إسلام كما ظن بعض الناس وإنما حَجب هذه الحقيقة الواضحة رهجُ العواطف، وغبار العجلة.

١) إرساء المدلول العام للإسلام، وإقصاء المدلول الخاص:

من المعلوم بداهة أن الإسلام دين الله الذي أوحى به إلى جميع أنبيائه، من حيث أصل الاعتقاد، وهو الاستسلام لله سبحانه بالعبودية المطلقة، والخلوص من الشرك، والانقياد له وحده بالطاعة؛ كما نطق بذلك جميع أنبياء الله ورسله، ودعوا أقوامهم قائلين: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ كما جاء على لسان نوح وهودٍ وصالح وشعيب، [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، وسائر أنبياء الله كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. هذا مع اختلاف تفاصيل شرائعهم، وخصوص رسالة كل منهم إلى قوم معينين، وعموم رسالة خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، كما قال: «الأنبياء إخوة من علّات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد.»[1] ومن هنا وصفهم الله بالإسلام في مواضع كثيرة كقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٨٣٧). أولاد العلات هم الإخوة لأب من أمهات شتى. والمراد أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة.

يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد درج علماء الإسلام على تقرير هذا المعنى في مقام بيان أن التوحيد أول دعوة الرسل صلوات وسلامه عليهم، وفي سياق بيان منزلة نبينا محمد ﷺ العالية، وشرفه وفضله على سائر الأنبياء، بوصفه خاتمهم وسيدهم، الذي أخذ ميثاق الأنبياء قبله على الإيمان به، وتعظيم شأنه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ولكن جارودي حين يقرر هذا المعنى ينحو به منحى آخر، قد لا يتفطن له القارئ أول وهلة، وهو التهوين من خصوصية رسالة نبينا محمد ﷺ وفضله على سائر الأنبياء، ومزية دينه على سائر الأديان، بل إنه يشدد على الإسلام بالمعنى العام، ويُغفل الإسلام الخاص الذي أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، ولا يشير إلى نَسخه لبقية الأديان، ويثبت أن القرآن مصدق للتوراة والإنجيل ولا يقرر أنه مهيمن عليهما، وغاية ما يبلغه أن الجميع على قدم المساواة، وليس لأهل الإسلام «المسلمين» أن يتميزوا عمن سواهم

بدعوى أن عقيدتهم هي الأفضل. وفوق ذلك يغمط نبينا محمداً ﷺ بكلام فيه جفاء، أو مقتضٍ تفضيل عيسى عليه السلام عليه. وإليك البيان:

قال في وثيقة إشبيلية عام ١٩٨٥م:

١. «لا يمكن أن يكون إسلام القرن العشرين إلا الإسلام الأزلي. ذلك لأن الإسلام ليس ديناً ضمن سائر الأديان، ولكنه الدين الأصيل والأول منذ أن نفخ الله في الإنسان من روحه... ذلك هو الإسلام الذي سماه القرآن (سنة الله)... وأول واجب علينا هو أن نعلن عقيدتنا الإسلامية بأن نعيش الإسلام بكليته، دون انحياز إلى عصبية، أو أعرافٍ خاصة.

٢. لم يزعم محمد ﷺ قط أنه جاء بدينٍ جديد... إننا نضعف عقيدتنا لو زعمنا بأننا أفضل الخلق، لمجرد تجاهلنا جميع من هم سوانا»[1].

---

(١) من أجل إسلام القرن العشرين «ميثاق إشبيلية» روجيه جارودي. (٦٥). قال الدكتور سعد عبد المقصود في تعقبه لجارودي ووثيقة إشبيلية: «أليس إرجاع الشيء الفاسد إلى صحته، وتطهير الدين من رجس أصحاب الأديان وجلاؤه مما يعتبر جديداً؟ أليست العودة إلى الصحيح، ورد الاعتقاد الفاسد إلى مصدره الأصيل من الصحة جديداً؟» لا لجارودي ووثيقة إشبيلية (٤٥).

وقال بعد عشر سنين في كتابه «الإسلام» عام ١٩٩٦م: «ليس الإسلام ديناً جديداً ولد مع نبوة النبي محمد ﷺ، ليس الله إلهاً خاصاً، وقفاً على المسلمين.

(الله) هو الترجمة الحرفية لكلمة تدل على الإله الواحد الأحد. والمسيحي العربي يقول في صلاته وشعائره: الله، ليتضرع إلى ربه. ويعني الإسلام: التوكل الإرادي والحر على الإله الواحد الأحد، وذلك هو القاسم المشترك بين الأديان المنزلة: يهودية ومسيحية وإسلام.»[١]

وقال في كتابه: «نحو حرب دينية» عام ١٩٩٦م أيضاً: ... أترك الكلام للقرآن حيث يجري الكلام عن يسوع أفضل مما هو عن محمد ذاته. أولاً: لأنه يعترف له بالولادة الخارقة الطبيعية... ثمة ألقاب خاصة في القرآن الكريم على يسوع المسيح ولم تطلق على غيره، حتى ولا على محمد ﷺ؛ لقد سُمي: المسيح، وكلمة الله وروح الله.»[٢]

إن جارودي يرمي إلى أن لا يتطلع المسلمون إلى قصر مفهوم الإسلام على ما جاءهم به رسول الله ﷺ، بل أن

---

(١) الإسلام (١٧).

(٢) نحو حرب دينية (٢٢ - ٢٣). وغير خافٍ أن الفضل الخاص لا يقضي على الفضل العام، وإلا فإن خلق آدم عليه السلام بيدي الله، ونفخه فيه من روحه، أعظم من الولادة الخارقة الطبيعية.

يعُدوا أنفسهم شركاء فقط في «الإيمان الإبراهيمي» سواءً بسواء كاليهود والنصارى. ومن ثم فعليهم أن يكفوا عن محاولة طبع العالم بطابعهم التقليدي الخاص، أو ما يسميه أسطورة «الأسلمة».

ويُعد اعتقاد المسلمين بأن دينهم الخاتم هو الدين الكامل، والنعمة التامة، والحقيقة المطلقة، «تطرفاً» و«أصولية» فيقول: «التطرف الإسلامي مرض الإسلام، كما أن الأصولية مرض جميع الأديان. الأصولية هي ادعاء الأصولي أنه يمتلك الحقيقة المطلقة، وأنه يمتلك من ثم، لا الحق فحسب، بل والواجب أيضاً في فرض تلك الحقيقة على الجميع ولو بالحديد والنار...

والادعاء الغربي أنه (الثقافة)، وليس ثقافةً بين ثقافات أخرى، تعارضه حينئذٍ أسطورة (الأسلمة) التي تنسى الطابع الشامل للإسلام (التسليم لله)، وتطرح نفسها مالكةً دون غيرها للحقيقة المطلقة. وذلك بدلاً من تعميم شامل حقيقي للثقافة التي تحقق وحدة، لا وحدة الهيمنة الاستعمارية الإمبراطورية، وإنما الوحدة السِمفونية، بإسهام كل ثقافة في الثقافة الشاملة.»[1]

---

(١) نحو حرب دينية (٣٠ - ٣١).

إن هذا الأصل الفاسد هو الأساس الذي بنى عليه جارودي مسجد ضراره، فجاءت فروعه ظلمات بعضها فوق بعض، وشبهات بعضها يأخذ برقاب بعض، كما سيأتي.

٢) التفسير التاريخي للإسلام، من منظور التقريب بين الأديان والحضارات:

في هذا السياق، سياق التأكيد على أن الإسلام هو الإسلام الأزلي، وليس الدين الخاتم، وأن محمداً ﷺ لم يأت بدين جديد، وإطلاق القول في ذلك دون تفصيل، في محاولة إقصائية لمدلول الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وأنزله على لسان رسوله ﷺ عقيدة وشريعة، فلا يقبل ديناً سواه، في سياق هذه المحاولات يتقدم جارودي بتفسير جديد للتاريخ الإسلامي، لا سيّما وهو حديث عهد بالتفسير المادي للتاريخ الذي جاءت به الفلسفة الشيوعية. لقد حاول جارودي التقليل من الدور المميز لهذه الأمة، وما خصها الله به من فضائل، وما أكرمها به من كرامات على سائر أمم الأرض، بسبب ما اضطلعت به من مهمة عظيمة في نشر دين لله في الأرض، وهداية الناس، كما خلّد الله لها هذه المنقبة بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۖ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فأعظم خصائص هذه الأمة، وسر خيريتها، وأثرها في التاريخ الإنساني حملُها رسالة الإسلام، خالصة نقية، لتعبيد الناس لرب العالمين علماً وعملاً، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

ولكن جارودي يحاول الغض من هذه الميزة الجلية، وصرف الأنظار إلى جوانب أخرى ثانوية، حصلت تبعاً وثمرة للوظيفة الأساسية، وهي نشر دين الله الحق الذي كانت البشرية بأمس الحاجة إليه كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١ - ٣]. أراد جارودي التقليل من الأهمية التاريخية للإسلام بوصفه ديناً جديداً، جاء بعقيدة صافية نقية كاملة شاملة، تفارق سائر العقائد السائدة في الأرض حينذاك، وتعلو عليها، وشريعة عادلة حكيمة متضمنة لمصالح العباد الدينية والدنيوية، أراد تفريغ حركة الفتح الإسلامي الجهادي من هذا المحتوى، والهدف الأسمى، وتصويره مجرد «يقظة دينية» لمذهب «الأريوسية»، الذي يصنف كواحدٍ

من «الهرطقات» النصرانية المنقرضة، و«ثورة اجتماعية» تعيد تقسيم الثروات بين الناس، و«تحولاً ثقافياً» يفسح المجال أمام نمو العلوم والحِكم والفلسفات والصناعات وعمارة الأرض، وهو في هذا الأخير، يسلط الأضواء على تراث الفلاسفة والمعتزلة والصوفية والباطنية، ويطمس التاريخ العلمي الحقيقي للأمة، المتمثل في نتاج علماء العقيدة والفقه والحديث.

ومن شواهد هذه «القراءة التاريخية» الجائرة لحركة الفتح الإسلامي، كما يتهجّاها جارودي بعنت ومشقة وتتعتع مفضوح، نقتطف ما يلي:

«إن شعوباً كان الإيمان القديم قد كف عن أن يمنح حياتها ومؤسساتها روحاً – المسيحية في الإمبراطورية البيزنطية، والمزدكية في الإمبراطورية الفارسية – هي التي استقبلته استقبالاً حماسياً. فالإسلام يكوِّن يقظة دينية تمنح روحانية هذه الشعوب حياة جديدة...

كانت الشعوب تحتفي بالمسلمين بوصفهم محررين، ورجال إيمان يحترمون إيمان الآخرين وينعشونه، في ضوء آخر الأنبياء.»[1]

---

(١) الإسلام (٢٧ - ٢٨).

فهل يظن جارودي أن أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى، ودخلوا في دين الله أفواجاً، قد بقوا - مثله - متمسكين بنصرانيتهم ومزدكيتهم؟ كما صنع هو بتمسكه بنصرانيته وماركسيته معاً، مع ادعاء الإسلام أيضاً، وأنهم اكتفوا بموعظة دينية أنعشت إيمانهم الفاتر فقط، على أيدي الفاتحين من أصحاب محمد ﷺ، ورضي عنهم؟!.

ثم يقدم مثالاً تاريخياً يكشف عما يعتمل في قلبه من حسدٍ للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وهو تعليل انتشار الإسلام في إسبانيا:

«إن الإسلام طعّم الأريوسية من الناحية الدينية، في شبه الجزيرة الإيبيرية، فكانت أجمل فسيل من فسائله.»[1] ويشرح هذا الإجمال ببيان كيفية دخول الأريوسية إسبانيا، وتأصلها في الطبقات الشعبية، وما نتج من صراعات بين النيقاويين المثلِّثين، والأريوسيين الموحدين، الذي طلبوا دعم المسلمين، ويصف دخول الإسلام الزاهي للأندلس بهذه الصورة الباهتة: «كان شمال مراكش عندئذ مقاطعة من المملكة القوطية... ورست أفواج من جند الزبير، بدعوة من الأريوسيين على الجزيرة بقيادة طارق، حاكم

(١) الإسلام (٣٢).

المنطقة من موريتانية الواقعة بموازاة الشاطئ، أو رئيس قبيلة بربرية تخضع لهذا الحاكم، وجرت معركة واحدة في وادي (لكة) قرب قادس، وانضم أسقف إشبيلية، عندما حمي وطيس المعركة إلى البربر، وتصرف التصرف نفسه أسقف طليطلة... وعبرت الجزيرة جيوش طارق بعد هزيمة رودريك، التي سرعان ما عززت اندفاعاتها جيوش موسى بن نصير (سليل كونت قوطي)، حتى البيرينيه دون أن تلاقي مقاومة، في أقل من أربع سنوات. وفتح اليهودُ الذين اضطهدهم القوطيون زمناً طويلاً، أبواب العديد من المدن.»[1]

وهكذا يجعل جارودي من قادة الفتح الإسلامي الأبطال عمالاً خاضعين أصلاً لحكم القوط، أو من سلالتهم، وكأنما يقول: «سمننا في دقيقنا» ولا فضل لأحد.

ويبلغ التجاهل والطمس لمضمون الفتح الإسلامي الجهادي ذروته، حين يزعم جارودي، أنه حتى بعد مرور مائة وأربعين سنة من فتح المسلمين للأندلس، لم يكن أيٌّ من اللاهوتيين المسيحيين الناطقين باللاتينية من مدرسة قرطبة يعرفون اسم «محمد» ﷺ، ولا اسم القرآن الكريم!!

---

(١) الإسلام (٣٤ - ٣٥).

وهذه الدعوة الساقطة المتهافتة التي لا يُسلِّم بها أدنى عاقل، فضلاً عن أن تصدر عن خبير بالحضارات، يعتصر جارودي مادتها بصعوبة بالغة من كتابات بعض الأساقفة الإسبان الموتورين، الذين لم يُضمنوا كتاباتهم ذكراً أو نقداً لدين الفاتحين الجدد، يتجشم جارودي هذه السبل الوعرة ليشهر سؤالاً مصطنعاً: «كيف نشرح هذا الصمت الغريب أمام الإسلام حتى عام ٨٥٠م لدى هؤلاء المدافعين عن الاستقامة المسيحية، الشديدي اليقظة؟»[1]، وحيث يستبعد الاحتمال الأرجح وهو الخوف والجبن، يصل بعد رحلة مضنية إلى الجواب الذي يريد لتدعيم القاعدة النظرية لمشروعه التقاربي بين الأديان فيقول: «إن الإسلام الذي كان ينتشر على الشاطئ انتشاراً بطيئاً، وبخاصة في (ألميرة) حيث الاتصالات مع الشرق أكثر وثاقة، لم يعبر عن نفسه بوصفه تياراً جديداً في الداخل، وفي قرطبة على وجه الخصوص، إلا بدءاً من هذا العصر. وحتى هذا التاريخ كان بوسع الإسلام أن يختلط بالتيارات (الهرطقية) التي كان اللاهوتيون المسيحيون يجادلون ضدها...

وكان ممكناً للإسلام خلال قرن ونصف ألا يكون

---

(١) الإسلام (٣٨).

متميزاً، باستثناء مدن الشاطئ[1]، من مختلف نسخ الهرطقة الأريوسية، التي كان المدافعون المسيحيون أنصار عقيدة نيقية يجادلون ضدها.

ونقول باختصار: إن الانتشار السريع للإسلام في إسبانيا لم يكن نصراً حربياً. إنه يمثل للأغلبية الواسعة من هذا الشعب:

١. يقظة دينية: لم تكن، بالنسبة للجزء الأريوسي من السكان – الأكثر عدداً- متناقضة مع إيمانه، بل ذات استمرارية معه، وكانت قد حررته من الاضطهاد الذي كان ضحيته حتى ذلك الزمن بوصفه هرطقة.

٢. تطوراً اجتماعياً: كان يقابل المفهوم الروماني للمُلكية، المعرَّفة في مدونة جوستينيان بأنها الحق الممنوح للمالك في أن (يستغل ويسرف في استغلاله)، بمبدأ قرآني مفاده أن (الملك لله وحده)، وليس الإنسان سوى وكل مسؤول عن هذه الملكية التي يمكن أن تصادر منه إن لم يستثمرها لخدمة الله والناس.

٣. تحولاً ثقافياً: إن روح الانفتاح لدى النبي

---

(١) علق في الحاشية بقوله: «لأن في مدن الشاطئ يرسو فقهاءُ آتينَ من الشرق لا يعتبرون (مسلماً) إلا من كان بعد النبي محمد.»

محمد ﷺ كانت توصي، على عكس اللاتسامح لدى المحتلين القوطيين، بالمضي للبحث عن العلم (ولو في الصين).»[1]

ذلك ما يسعى جارودي لإرسائه بشأن التاريخ الإسلامي:

١. أنه لا يحمل ديناً جديداً مميزاً، بل مجرد يقظة دبت في أمم تختزن أدياناً سابقة، نبهتها من سباتها حركة بطيئة لم تعبر عن نفسها بوصفها تياراً جديداً، إلى الحد الذي يمضي قرن ونصف من الزمان دون أن يكتشف الناس، بل ولا رجال الدين المتخصصون، اسم نبي هذا الدين واسم كتابه!

وليت شعري ألم يكن بناء المساجد، ودوي المآذن في مدائن الأندلس بالشهادتين، ومنها جامع قرطبة الذي يتغنى جارودي بموسيقى حجارته – كما يعبر[2] – كافياً لتقديم هذه المعلومة الأولية لآحاد الناس فضلاً عن الأساقفة الموتورين؟!

---

(١) الإسلام (٣٨ – ٣٩، ٤٣ - ٤٤).

(٢) انظر: الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة الروح والفكر. روجيه جارودي. ترجمة: د. محمد مهدي الصدر. دار الهادي. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى (١٤١١هـ - ١٩٩١م). (٢٢٩ - ٢٣٠).

٢. إنكار الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله. ذلك أن غاية الجهاد أن يكون الدين لله، بل كله لله، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وهذا ما لا يتفق ومشروع جارودي الوحدوي ذي الألف وجه، الذي يتيح لكافة الأديان المحرفة، والوثنيات المنحطة أن تنعم بلقب «الإسلام الأزلي».

يقول جارودي: «المثال النموذجي للإرادة في تخريب الإسلام – وذلك منذ قرون طويلة حتى أيامنا هذه – يكمن في ترجمة كلمة (جهاد) بـ (حرب مقدس) ... ويميز التقليد الإسلامي الأسمى، والأكثر أمانة، (الجهاد الأكبر) أي النضال ضد أنفسنا، ونزعاتنا الأنانية التي تدمر (الأمة)، من (الجهاد) الأصغر، وهو أيضاً (جهد) وتضحية يتجه شطر الخارج للدفاع عن الإيمان، ومقاومة كل ظلم يمارس على أولئك الذين يريدون أن يعملوا وفق هدى الله، وليس بهدف نشر الإيمان الذي لا يمكنه أن يكون بالقوة.»[1]

ومن هنا يلح جارودي على أن الانتشار السريع للإسلام في إسبانيا لم يكن نصراً حربياً. ويصف أمجاد الفتح الإسلامي الجهادي في الأندلس بـ «خرافة الغزو

(١) الإسلام (١٠٦ - ١٠٧).

العربي لإسبانيا.»[1]

إن مجمل حركة التاريخ الإسلامي باعثها الجهاد في سبيل الله، لنشر دين الله وإعلاء كلمته، لا إكراه الناس على الدين، وإنما لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. وكذلك فعل رسوله ﷺ لإظهار دين ربه بالحجة والبيان، وبالسيف والسنان، فسيرته حافلة بإنفاذ السرايا والبعوث والغزوات والفتوح. وعلى ذلك سار خلفاؤه وأصحابه رضوان عليهم كما وصفهم ربهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وهي الصورة التي رسمها القرآن لأولياء الله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) الإسلام في الغرب (١٧).

وهكذا كُتب تاريخ الإسلام، وهكذا قرأه أجيال المسلمين. أما جارودي فقد قرأه مغمضاً عينيه، متنكراً لأمانة المؤرخ، فسلب الأمة الإسلامية خيريتها، وغمطها حقها، زاعماً أن الإسلام الذي أنتج أعظم حضارة في التاريخ سرى سرياناً بطيئاً لا يكاد يتبينه أحد، ولم يُحدث تحولاً جذرياً في حياة الناس وعقائدهم، بل نفض الغبار عن إيمانهم الراكد، لا عن طريق الجهاد، بل عن طريق الفكر والفلسفة. وهو بذلك يوجه رسالة للأمة الإسلامية التي تحاول أن تنهض من رقدتها قائلاً للمسلمين: كُفُّوا عن الشعور بالعلو والخيرية، فلستم وحدكم المسلمين، وإياكم والتفكير بنشر دينكم الخاص، فليس لديكم مستند ديني ولا تاريخي يخولكم القيام بهذه المهمة المزعومة، وهيئوا أنفسكم للانخراط في موكب الوحدة الإنسانية العالمية.

ذلك فحوى معالجته التاريخية للإسلام، أما نص خطابه المستقبلي المؤسس على تلك المعالجة فهو ما يلي: «إن الأمر اليوم بالنسبة إلينا، بعد أن نبين كيف يمكن أن يعيش الإسلام، ويعبد الله في مجتمعاتنا، لا في الانعزال، والحلم بعودة الماضي، بل بالنضال مع كل المؤمنين الذين يعتقدون أن للعالم معنى، وأن العالم واحد... يناضل فيه المسلمون والمسيحيون والبوذيون، لكي يعطوا كل إنسان مهما يكن

لونه، وأصله ودينه، كل الوسائل التي تساعده على تفتيح كل الإمكانيات التي يحملها في داخله.»[1]

وقد فاجأ جارودي علماء المسلمين المبتهجين بإسلامه بهذه الأفكار، فحكى الأستاذ أنور الجندي انطباعاته عن اللقاء – أو ربما الصدام – الذي جرى بين جارودي وبعض علماء المسلمين في ملتقى «سطيف» بالجزائر عام ١٩٨٦م قائلاً: «كان أول ما يفاجئ به جارودي سامعيه تلك الحملة الواسعة على تراث الإسلام وتاريخ الإسلام، وانتقاص عصر الأمويين والعباسيين على نحو يكشف عن غاية هي أكبر محاولة تجاوز تاريخ الإسلام وتراثه جميعاً من أجل التطلع إلى آفاقٍ عصرية يراها لا تحتاج أبداً إلى النظر إلى ذلك التراث، أو الاهتمام به، فجاء تناوله هذا يحمل طابع الاستخفاف والتجاهل. ويمكن أن يفهم في ظل ما حاول أن يدعو المسلمين إليه من الانتفاع بميراث ماركس وسارتر[2] حين حاول أن يحسنه، ويدعو المسلمين إليه كمصدر من مصادر النهضة.»[3]

---

(١) الإسلام (١١ - ١٢).

(٢) سارتر (جان بول). فيلسوف وكاتب فرنسي، ولد في باريس ١٩٠٥م، من روّاد الوجودية المتشائمة. عرض أفكاره في محاولات وقصص ومسرحيات منها «الكائن والعدم»، «طريق الحرية»، «الجدار». المنجد في الأعلام (٤٣٣).

(٣) تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة (١٧٥).

٣) تقويم الحضارة الإسلامية وتراثها، من منظور التقريب بين الأديان والحضارات:

في دراسته وعرضه للتراث العلمي والحضاري للأمة الإسلامية، سلك روجيه جارودي مسلكاً انتقائياً مجحفاً، يعتمد إبراز الاتجاهات المنحرفة، وتمجيد رموزها، والحط من سبيل المؤمنين، أهل السنة والجماعة، والسواد الأعظم للأمة الإسلامية عبر القرون. ويتماشى هذا المسلك مع مشروعه التقاربي بين الأديان والحضارات، حيث التقط من مطاوي التاريخ كل زنديق، ومغموط في دينه، ومبتدع ينتسب إلى الإسلام، فحسَّن صورته، وعظَّم شأنه، وأشاد بأقواله، وقال للمسلمين هنيئاً لكم به. وتطاول على كل إمام ثقة ناصح لله وكتابه ورسوله والمسلمين، بأقذع السباب؛ والنقد الجارح. فأصحابه أصحاب وحدة الوجود، والقول بالحلول والاتحاد، من زنادقة الصوفية والباطنية، ومؤلهة العقل، من المعتزلة وأشباههم. وأعداؤه أئمة الحديث والسنة والفقه في الدين، من السلف الصالح. وبالتالي فإن الحضارة الإسلامية التي يشيد بها ويتغنى بأمجادها ليست ميراث النبوة الحقيقي والوحي الأمين، وإنما الفلسفة وعلم الكلام وشطحات الصوفية، مما تنزلت به الشياطين على كل أفَّاكٍ أثيم، ممن لا يرعون

للدين حرمة، ولا يعرفون له حدوداً، ويشاقِقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، ويتبعون غير سبيل المؤمنين.

ذلك أن أهل الإسلام الذي حفظوا الوحيين، وضبطوا حدود الدين، يحولون بينه وبين ما يشتهي من «شيوعية» دينية، ووحدة عالمية كفرية. في حين أن أرباب الصوفية يوافقونه في قبول كل صورة من صور الكفر والإلحاد، ويقاربونه في نصرانيته – التي لا يزال مقيماً عليها - في فكرة حلول الإله بالإنسان، كما أنه اعتضد بمنهج المعتزلة العقلاني، وقولهم بخلق القرآن، وأنه ليس كلام الله حقيقة، يمهدون له الطريق للقول بتاريخية النص القرآني، وقابليته للنقد. أما الباطنية على اختلاف درجاتهم في التأويل الفاسد، فيتيحون له المجال للعبث بأحكام الشريعة، وصرفها عن ظواهرها إلى ما يراه مناسباً لـ «إسلام القرن العشرين».

ومن ثم جاءت كتاباته ومقابلاته طافحةً بذم الفقهاء والمحدِّثين وتنقصهم، وتمجيد المتصوفة والمعتزلة وإبرازهم. ويربط جارودي ربطاً تاريخياً «مقلوباً» بين ظهور هؤلاء الزنادقة وامتداد الحضارة الإسلامية ونموها - في زعمه - من جهة، وتسلط الفقهاء وتمكنهم وانحسار الحضارة الإسلامية من جهة أخرى.

على أن «الامتداد» و«الانحسار» عنده ليسا كما يتبادر إلى ذهن كل مؤرخ منصف، من حيث كونهما معياراً لتقدم الفتوح الإسلامية ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ونشر أعلام السنة، بل لامتداد الفكر الباطني، وانحسار العلم الشرعي. فمن ثم يبتدع تقسيماً تاريخياً للحضارة الإسلامية، فيزعم حصول ثلاثة انحسارات للإسلام:

«**الانحسار الأول للإسلام**: مناسبة تاريخية ضائعة: مذهب المعتزلة الذي أدانه التعصب من الأشعري[1] إلى ابن حنبل[2]: التشويه الأول الذي أصاب الفكر الإسلامي

---

(١) علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، كان من أئمة المتكلمين المجتهدين. ولد بالبصرة عام ٢٦٠هـ. وتلقى مذهب المعتزلة وبرز فيه، ثم رجع وجاهر بخلافهم. وتوفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ ومن مصنفاته «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، و«الإبانة عن أصول الديانة»، وغيرهما، ولابن عساكر «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري». الأعلام (٤/ ٢٦٣)، طبقات الشافعية (٢/ ٢٤٥)، والمقريزي (٢/ ٣٥٩)، ابن خلكان (١٣/ ٣٢٦)، البداية والنهاية (١١/ ١٨٧)، اللباب (١/ ٥٢)

(٢) إن هذا الابتداء والانتهاء «من الأشعري إلى ابن حنبل» ليكشف عن القراءة العجول المتسرعة للتاريخ الإسلامي التي تقدم المتأخر، وتؤخر المتقدم. فالإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١هـ) رحمه الله سابق للأشعري (٢٦٠ – ٣٢٤هـ) زمناً ورتبةً وبلاءً حسناً، في نقض أصول المعتزلة وصد بدعتهم، واحتمال محنتهم في سبيل حفظ الدين والسنة. ومن شواهد هذا التخبط أنه عد الحسن البصري رحمه الله مؤسساً لمذهب المعتزلة – انظر الإسلام (٦٦) – مع أنهم سموا بذلك لاعتزالهم إياه!

بإدانة المعتزلة... وكان المعتزلة قد أتاحوا للمسلمين أن يبتكروا تأليفاً أصلياً كان قد وضعهم على رأس الثقافة العالمية. وهذا الفكر، فكر الانفتاح والبحث، لم يتح إزهاراً مذهلاً للعلوم والفنون اللتين لم تجعلا الإسلام موقظ الثقافة في أوربا، وأفريقية، والشرقين الأدنى والأوسط فحسب، بل جعلتا منه نمطاً من فكر (المعتزلة) النقدي والانفتاحي، الذي شجعه المنصور[1]، فكر منح أساسه الفلسفي هذا التقدم عل مستويات الثقافة جميعها.

الانحسار الثاني للإسلام: بعد النهضة الصفوية في فارس، وحكم أكبر في الهند وإشعاع قرطبة... عندما حاول بعض الخلفاء القليلي الثقة بالقوة والإشعاع الحر للإيمان الإسلامي، أن يجعلوا سلطتهم أكثر مركزية وأكثر استبدادية، وضعوا نهاية لهذه الحرية المبدعة...

وهذا الانطواء المرعب كان سيضغط عل كل التاريخ اللاحق للإسلام، إذ يحكم عليه بسيادة التقليد القديم والانغلاق على الذات. وتَسِمُهُ استجابة (ابن حنبل)، فثمة

---

(١) هذا أيضاً من شواهد قراءة جارودي السطحية للتاريخ الإسلامي. فالمعروف أن «المأمون» (٩٨ - ٢١٨هـ) وليس «المنصور» (١٣٦ - ١٥٨) هو الذي مكن المعتزلة واضطهد السنة.

تضخم في (الحديث) يبدل التقليد الخلَّاق لـ (سنة الله) – أعني استمرار مساهمات الرسل - وما يميز (الانحطاط الحنبلي) هو التالي:

• الميل إلى تقليص مبادئ الإسلام في تطبيقها الذي مورس في القرون الأولى: تطبيقها في مجتمع ضيق من الشرق الأدنى. فرسالة القرآن كانت كلية، في حين أن هذا التقليد كان قد أصبح ذا خصوصية. كان إنتاج الأحاديث يجري في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام وحمل بالطبع بصمتها التاريخية...

ومع تقطيع أوصال الملكيات المسماة (إسلامية) في الشرق...وفي الغرب... أفلت الفكر من الضغوط الخانقة لهذه المركزية السلطوية، وعندئذٍ ازدهرت عبقرية الإسلام: من ابن سينا[1] إلى الرومي في الشرق، ومن أبي القاسم إلى ابن عربي في إسبانيا: ثمة انطلاقة جديدة في البحث العلمي والتقني، وانتشار جديد للثقافة والفنون.

---

(١) الحسن بن عبدالله بن سينا. أبو علي. ولد في إحدى قرى بخارى سنة ٣٧٠هـ. اشتغل في الفلسفة والطب والمنطق. كان هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم العبيدي. من تصانيفه: الشفاء والإشارات والقانون. توفي سنة ٤٢٨هـ. انظر: الأعلام (٢/ ٢٤١)، وفيات الأعيان (١/ ١٥٢)، لسان الميزان (٢/ ٢٩١).

وتنتصر الدوغماتية[1] مرة إضافية أخرى. والخوف من الاجتهاد وتواطؤ الأمراء المستبدين مع العلماء الخدم... ومات العلم الإسلامي بسبب هذه الدوغماتية، وهذا الرفض للروح النقدية – روح المعتزلة وإخوان الصفا فيما بعد، وروح كل المحاولات ليقظة الفكر المبدع، فكر الإسلام.

ويتجلى على المستوى الروحي هذا الإذلال للفكر الإسلامي، عندما قاد الجفافُ الفقهي، والميلُ الرئيس إلى هذا النظام، بعد قرنين، ابنَ تيمية إلى إدانة ابن عربي، أحد التعبيرات الأكثر سمواً لداخلية الإسلام وأبعادها في الحب، وإلى إدانة الشعراء الصوفيين الفارسيين.

ويظل ابن تيمية معاً، على الرغم من جهوده في إضفاء الداخلية على الإيمان، تلميذ ابن حنبل الذي كان، وقد أخرس المعتزلة، النصير الأنشط لـ (إغلاق الاجتهاد) – على عكس ابن تيمية الذي كان يقتصر على جعله اختصاص القلة، وأستاذ عبد الوهاب المولود

---

(١) الدوغماتية (Dogmatism) من (Dogma) أي عقيدة أو مبدأ، وغالباً ما تستعمل كلمة دوغماتية للدلالة على العقائد القطعية التي تفرض بنوع غطرسة، ومن غير مبررات كافية. انظر: المورد (٢٨٧).

عام ١٦٩١،[1] وهو، بوصفه كذلك، معلم المحافظين جمعيهم وصنمهم[2]...

الانحسار الثالث للإسلام بعد جهد «بناءٍ جديد» للفكر الإسلامي من الأفغاني إلى إقبال: الإسلاموية مرض الإسلام، كما الأصولية مرض الأديان كلها. فالأصولية هي الادعاء بملكية الحقيقة المطلقة، وبالتالي وجوب فرضها على الجميع...

وتعود المنابع العميقة للحركة الحالية إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما وُلدت حركة النهضة «النهضة الإسلامية» مع الأفغاني (١٨٣٦ - ١٨٩٧).

فالأفغاني فتح الدرب لبحث سيستمر خلال قرن، وينتشر على محورين:

---

(١) هذا خطأ تاريخي أيضاً، تلقاه روجيه جارودي عن أسلافه من المستشرقين والمنصرين مثل هيوز في كتابه (*Dictionary of Islam*) (٦٥٩)، وولفرد في (*A Pilgrimage to Najd*) ملحق (١٢٥)، وزويمر في كتابه (*Arabia: The Cradle of Islam*) وغيرهم. وقد ذكروا ولادته سنة ١٦٩١م. وهو غلط فاحش. انظر: محمد بن عبدالوهاب. مصلح مظلوم ومفترى عليه. تأليف: الأستاذ: مسعود الندوي رحمه الله (٣٠) حاشية (١٦). والصحيح أن ولادة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله كانت سنة ١١١٥هـ - ١٧٠٣م. انظر تاريخ ابن غنام (١/ ٥٧).

(٢) في المقطع الأخير هذا استدراكات، وجمل اعتراضية مزقت أوصاله، وفرقت معانيه. وجماعُه: ويظل ابن تيمية معاً، تلميذ ابن حنبل وأستاذ عبد الوهاب.

• كل نهضة للإسلام سياسة وروحية معاً، تقتضي قراءة جديدة للقرآن متحررة من التفسيرات الجافة والمجففة، وتفسيرات (العلماء) الرسميين.

• مشكل الحداثة: لا ينبغي أن تكون مقاربته انطلاقاً من إيديولوجية غربية تسمى (حديثة)، تستبعد مسألة (الغايات الأخيرة) (غايات الإنسان)، وتحيل العقل على بحثٍ عن الوسائل التقنية، وسائل القوة والثورة، مبدأ استعمارها الحربي والاقتصادي والثقافي.

ذلك هو الإلهام الأولي الذي سيعرف، خلال قرن، كثيراً من التغيرات، وضروب التحريف.»[1]

ولقد وقع جارودي على أشباهه، وانحاز إلى فئته، وصوّب وخطّأ، ووالى وعادى، بناءً على أصله الفاسد في توحيد الشر، بإزالة الحواجز، وتعدي الحدود، باسم الاجتهاد والتحرر والانفتاح التي لا تعرف ضابطاً. لقد انتقى جارودي «مثل السَّوء» من كل عصر ومصر، وممن لفظهم تاريخ الإسلام، ونَبذتهم الأمة، فخلع عليهم أجل الأوصاف. ونظر شزراً إلى أئمة الهدى، وحَفظة الشريعة ممن أفنوا أعمارهم في شد معاقد الدين، وصون بيضة

---

(١) الإسلام (٦٣، ٧٢ - ٧٣، ٧٨ - ٨٠).

الإسلام، وهم يدعونه إلى الهدى ائتنا، فأبى واستكبر، ونبزهم بألقاب السوء.

وعلى قراءته «المقلوبة» للتاريخ الإسلامي وانحساراته المزعومة، تعقبات:

أولاً: أن «الانحسارات» الحقيقية والنكبات الكبرى التي مُنيت بها الأمة الإسلامية طوال تاريخها كانت مقترنة اقتران النتيجة بالمقدمة، والأثر بالمؤثر بظهور هذه الاتجاهات المنحرفة، من فلسفة وتصوف واعتزال وتشيع، كما يشهد بذلك التاريخ. قال ابن القيم رحمه الله: «سُلط النصارى على بلاد المغرب لما ظهرت فيها الفلسفة والمنطق، واشتغلوا بها، فاستولت النصارى على أكثر بلادهم، وأصاروهم رعية لهم.[1] وكذلك لما ظهر ببلاد المشرق، سلط الله عليهم عساكر التتار، فأبادوا البلاد الشرقية واستولوا عليها.

وكذلك في أواخر المائة الثالثة وأول الرابعة، لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الاتحاد، سلط الله عليهم

---

(١) يريد بالمغرب بلاد الأندلس، وذلك حين سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م، وما أعقبها من تراجعات وانتكاسات وهي الحقبة التي شهدت ظهور الفلاسفة المتصوفة الذين يمجدهم جارودي.

القرامطة الباطنية فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات.»[1]

ولعل هذا ما يريد جارودي ويشتهيه، وهو القضاء على السلطة المركزية، والخلافة الإسلامية، التي تعتصم بها الأمة بعد الله عزوجل، فتضيع معالمها وخصائصها. وقد نطق بذلك فيما نقلناه آنفاً حين قال: «ومع تقطع أوصال الملكيات المسماة (إسلامية) في الشرق... وفي الغرب... أفلت الفكر من الضغوط الخانقة لهذه المركزية السُّلطوية، وعندئذٍ ازدهرت عبقرية الإسلام.»

ثانياً: من المغالطات الصارخة أن ينبز جارودي علماء السنة بـ«العلماء الخدم»، والمتواطئين مع الأمراء المستبدين، ونحو هذه الألفاظ، ويضرب المثال بالإمامين الجليلين مالك بن أنس[2]، وأحمد بن حنبل، ثم بشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمهم الله – وقد علم القاصي والداني ما نالهم في ذات الله من أذى حكام زمانهم، من المعتزلة والأشاعرة. ويغض الطرفَ عن الإرهاب الفكري، والتسلط العنيف، الذي مارسه المعتزلة حين تمكنوا من الوصول إلى بعض

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٢/ ٣٨٣).

(٢) الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، أبو عبدالله، إمام دار الهجرة، ولد سنة ٩٣هـ. كان صلباً في دينه بعيداً عن الملوك، حافظاً ثبتاً ورعاً. توفي سنة ١٧٩هـ. الأعلام (٥/ ٢٥٧)، الوفيات (١/ ٤٣٩)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٥)، صفوة الصفوة (٢/ ٩٩)، اللباب (٣/ ٨٦)، حلية (٦/ ٣١٦).

الخلفاء العباسيين، وامتحنوا الأمة بالقول بخلق القرآن، بقوانين أشد جوراً وظلماً من «قانون فابيوس-جيسو» الذي أدان جارودي مؤخراً.

ثالثاً: أن الغاية من هذا التقويم، ونقد الرجال هو سلخ الأمة من دينها الذي جاء به محمد ﷺ، بحسبانه «مواصفات» لفترة تاريخية معينة فقط.

فـ «الانحطاط الحنبلي» – على حد تعبيره - يساوي في تعريفه تطبيق الإسلام كما مورس في القرون الأولى. وبعبارة نبوية محكمة: «ما أنا عليه وأصحابي»[1] فهنيئاً للحنابلة بهذه المذمة من ناقص.

أما أداة السلخ، فمُدية ذات حدين: قراءة جديدة متحررة للقرآن، تؤوله على غير تأويله، ورفض للأحاديث التي جرى إنتاجها – في زعمه الكاذب - خلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام، التي هي القرون الفاضلة. فماذا أبقى للإسلام إذاً؟

والعجب من دَعِيٍّ للبحث عن الحقيقة، يستشهد بمخطوط في دَير إسباني، أو أنشودة في معبدٍ بوذي، أو هلوسة لصوفي في حال اصطلام وفناء وجذب، ويهزأ

(١) رواه الترمذي (١٠/ ١٠٩ - ١١٠).

بالسنة المطهرة التي حملها من كل خلفٍ عدوله، وأفنوا أعمارهم ف ضبطها وتوثيقها وحفظها، فيصب عليهم جام غضبه، ويسلقهم بألسنة حداد.

أما أهل الزندقة والفلسفة ووحدة الأديان، فيُسَبح بحمدهم ويقدس. ومن نماذج ذلك:

- **ابن مسرّة القرطبي[1]:**

يقول جارودي عن هذا الزنديق، بعد أن شرح تلقيه الفلسفة عن الرازي (٨٦٤ - ٩٣٢هـ)، والاعتزالَ في البصرة، ووقوعَه تحت تأثير «إخوان الصفاء»، ثم التصوف في مصر على يد ذي النون المصري[2]: «لقد حقق ابن مسرّة في الغرب – في قرطبة- أول توليفة فلسفية للتقاليد الروحانية الأكثر علواً في آسيا وأفريقيا، وحسب

(١) ابن مسرّة القرطبي (٢٦٩ – ٣١٩هـ - ٨٨٣ – ٩٣١م): محمد بن عبدالله. فيلسوف. صوفي. إسماعيلي، نسبت إليه مقالات كفرية، واتهم بالزندقة، وكان يحرف التأويل في كثير من القرآن، فرَّ إلى المشرق. ورد عليه جماعة من أهل المشرق والمغرب، وحرقت كتبه. انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٢٣).

(٢) ذو النون المصري: ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفياض، أو أبو الفيض. أحد الزهّاد العباد المشهورين. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. وهو أول من تكلم في مصر في «ترتيب الأحوال، ومقامات أهل الولاية»، فأنكر عليه عبدالله بن عبد الحكيم، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه، وسمع كلامه، ثم أطلقه. فعاد إلى مصر، وتوفي بجيزتها. انظر: الأعلام (٢/ ١٠٢).

نزعة الإسلام ذاته، في نسبة كل روائع العالم إلى الله. وقراءته الرمزية للقرآن، كقراءة فيلون[1] اليهودي – سابقاً – للتوراة، وقراءة بريسليان [Priscillian] للأناجيل، منحت الروح للرسالة.»[2]

• **الإمبراطور المغولي أكبر بن همايون** (١٥٤٢ – ١٦٠٥م) أبو الفتح، جلال الدين محمد: يصفه جارودي بأنه: «وجه من أعظم وجوه التاريخ الكلي... يُعبر أكبرُ عن هذا الفكر المنفتح ذي النزعة الكلية: إنه سيسحب من السنة امتيازاتها بوصفها الدين الرسمي، ويستقبل شيعة الفرس على قدم المساواة. وأصدر أمر تسامح لمصلحة دين الهندوس والسيخ الذي كانوا يَعتبرون هذا الإمبراطور معلمهم الروحي، ولكنهم كانوا مضطهدين حتى ذلك الحين، يضطهدهم أباطرة المغول، تلقوا من الإمبراطور أكبر معبد «أمريتسار»، الذي ظل حتى أيامنا هذه مركزهم الروحي.

---

(١) فيلون (٢٠ق.م – ٥٧م) فيلسوف يهودي، ولد في الإسكندرية. حاول أن يشرح الدين بتعابير الفلسفة اليونانية. وأكثر استعمال الطريقة الرمزية. له تأثير على آباء الكنيسة الشرقية. وعلى فلاسفة العرب. انظر: المنجد في الأعلام (٥٣٧).

(٢) الإسلام في الغرب (٦٨). وقد رسم المترجم د. محمد مهدي الصدر اسمه هكذا: «ابن مضّارة» في جميع الفصل المتعلق به (٥٥ – ٧١)، لكونه تهجّاه من الأصل الفرنسي.

وفي عام ١٥٧٥ بنى ضرباً من «بيت للدين»، يستقبل فيه على الرغم من معارضة الاستقامات الفارسية جميعها، براهمانيي الهندوس، وبوذيين، وجائينيين، ومزدكيي الهند، ومسيحيين – جزويت برتغاليين على وجه العموم – وأطلق المتعصبون من كل فج، ولا سيما العلماء الطائفيون في كابول وأوزبكستان، فتوى الإدانة ضده.»[1]

• ابن عربي (٥٦٠ – ٦٣٨هـ، ١١٦٥ – ١٢٤٠م) محمد بن علي، الحاتمي، الطائي، الشيخ الأكبر لزنادقة الصوفية، وقدوة القائلين بوحدة الوجود، ووحدة الأديان، كما في أبياته الشهيرة التي يتغنى بها كل ملحد، ويطرب لها كل زنديق:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثـان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن

(١) الإسلام (٦٠ - ٦١)، وانظر التعريف بأكبر فيما تقدم في الباب الأول، الفصل الثاني

أدين بدين الحب أنى توجهت

ركائبه فالحب ديني وإيماني

فلا عجب أن يهيم جارودي بحبه، ويفنى فيه، ويلهج بذكره في كل كتاب ويطريه، لموافقته إياه في هذا المنحى الخبيث. فمن ذلك قوله: «وذروة أعمال ابن عربي هي حين يؤكد استمرارية الرسالات السماوية في (فصوص الحكم)... وهو في هذا الكتاب حامل الرسالة الأساسية للإسلام: الرسالة الإبراهيمية التي تَعتبر أن الديانات اليهودية والمسيحية ليست سوى دينٍ واحد.

ويشير ابن عربي قائلاً: المسيحي هو الذي يؤمن بدينٍ سماويّ، ولا يغير دينه إذا اعتنق الإسلام. لقد كان ذلك الازدهار الأخير للإسلام في الغرب، قبل أن يضطر ابن عربي إلى الرحيل إلى دميشق لكي يلتحق بفلاسفة (الإشراق) الفرس، وقبل أن يَشيَ به في القاهرة فقيهٌ كان يروم أن يحكم عليه بالموت. بعد ابن عربي سيُحتضر الإسلام في الغرب... .»[1]

هذه ثلاثة أمثلة لأفراد تشابهت قلوبهم وقلب جارودي، رغم اختلاف أعصارهم وأمصارهم. ومن يتناولهم جارودي

---

(١) الإسلام (١٦٩، ١٧١ - ١٧٢).

بالجرح والتعديل وفق معاييره الفاسدة كثير. وليس كل من امتدحه جارودي يكون مبطلاً بكل حال، فربما امتدح بعض أرباب المهن والعلوم المباحة كالخوارزمي[1] في الجبر والرياضيات، والحسن بن الهيثم[2] في البصريات، والإدريسي[3] في الجغرافيا، وابن خلدون[4] في الاجتماع.

---

(١) الخوارزمي (٠٠٠ – بعد ٢٣٢ هـ): محمد بن موسى الخوارزمي، أبو عبدالله، رياضي، فلكي، مؤرخ، من أهل خوارزم ينعت بالأستاذ. أقامه المأمون العباسي قَيِّماً على خزانة كتبه، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية، وترجمتها. وله كتاب «الجبر والمقابلة» ترجم إلى اللاتينية ثم إلى الإنكليزية. عاش إلى ما بعد وفاة الواثق بالله. انظر: الأعلام (٧/ ١١٦).

(٢) ابن الهيثم (٣٥٤ – ٤٣٠هـ): محمد بن الحسن بن الهيثم، أبو علي، مهندس من أهل البصرة. يلقب بـ «بطليموس الثاني». له تصانيف في الهندسة. اتصل بالحاكم العبيدي، وتوفي بالقاهرة. وكتبه تزيد على السبعين. انظر: الأعلام (٦/ ٨٣، ٨٤).

(٣) الإدريسي (٤٩٣ – ٥٦٠هـ): محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الإدريسي، الحسني، الطالبي، أبو عبدالله، مؤرخ، من أكابر العلماء بالجغرافية. من أدارسة المغرب الأقصى. ولد في سبتة، ونشأ وتعلم بقرطبة. ورحل رحلة طويلة، انتهى بها إلى صقلية، فنزل على صاحبها روجار الثاني...، ووضع له كتاباً سماه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» أكمله سنة ٥٤٨هـ. الأعلام (٧/ ٢٤).

(٤) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، أبو زيد. ولي الدين الإشبيلي. الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاثة. ولد سنة ٧٣٢هـ أصله من إشبيلية. وولد ونشأ بتونس. ورحل إلى الأندلس وفاس ثم إلى مصر، اشتهر بكتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» وأوله «المقدمة» وهي تعد من أصول علم الاجتماع، وله أيضاً «شرح البردة» وغيرهما. توفي سنة ٨٠٨هـ. الأعلام (٣/ ٣٣٠)، الضوء اللامع (٤/ ١٤٥)، دائرة المعارف الإسلامية (١/ ١٥٢)، نفح الطيب (٤/ ٤١٤)، العبر (٧/ ٣٧٩).

وربما امتدح بعض علماء الإسلام المعتبرين، لخصلة راقت له، وموقف منفرد أعجبه، أو فهمه، حسب منظور لا يلتزمه ذلك الفقيه، كما يصنع مع أبي حنيفة - رحمه الله - حين يمجد اجتهاداته وآراءه التي عالج بها مشاكل اعترضت مجتمعاً يخالف مجتمع المدينة[1]، ويفرع على ذلك فروعاً باطلة لا يقرها أبو حنيفة، وليست من مذهبه، أو يمتدحه لكونه لم يعتمد إلا سبعة عشر حديثاً فقط - في زعمه.[2]

وكما يمتدح «ابن باديس»[3] و«الإبراهيمي» لمجابهتهم

---

(١) انظر: وثيقة إشبيلية (١٨)، الإسلام (٧٣)، روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (١٨٣). مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م، (٢١٦) مقابلة مع مجلة المستقبل مايو ١٩٨٥م...وغير ذلك.

(٢) انظر: الإسلام (٦٥).

(٣) ابن باديس: (١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ، ١٨٨٧ - ١٩٤٠م) عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس: رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، من بدء قيامها سنة ١٩٣١م إلى وفاته. ولد في قسنطينة، وأتم دراسته في الزيتونة بتونس. وأصدر مجلة «الشهاب»، علمية دينية أدبية. صدر منها في حياته نحو ١٥ مجلداً. وكان شديد الحملات على الاستعمار، وحاولت الحكومة الفرنسية في الجزائر إغراءه بتولية رياسة الأمور الدينية فامتنع، واضطهد، وأوذي. وقاطعه إخوة له كانوا من الموظفين، وقاومه أبوه، وهو مستمر في جهاده. وأنشأت جمعية العلماء المسلمين في عهد رياسته كثيراً من المدارس. وتوفي بقسنطينة في حياة والده. له «تفسير القرآن الكريم». انظر: الأعلام (٣/ ٢٨٩)، وانظر كتاب: عبد الحميد بن باديس. رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة. تأليف د. محمد فتحي عثمان. وانظر مجلة البيان عدد ١٣ ذي الحجة ١٤٠٨هـ (٨ - ١٣).

الاستعمار الغربي لبلادهم[1] ولكنه يشيد - بشكل خاص - بطلائع العصرانيين لاقترابهم من منهجه في تقارب الأديان مثل «الأفغاني» و«محمد عبده».[2]

أما الصوفية - على اختلاف مراتبهم- فعيبة نصحه، وأهل ثقته، ومستراح فؤاده.[3]

٤) الفصل بين الشريعة والتشريع:

تأسيساً على الأصل الفاسد الذي أصَّله جارودي في الاقتصار على «الإسلام العام»، عمد إلى طمس الخصائص المميزة لدين الإسلام، المتمثلة في جوانبه التشريعية الشاملة لجميع مناحي الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية وغيرها، ومحاولة تزهيد المسلمين بالتراث الفقهي الضخم الذي خلفه الفقهاء عبر القرون، بدعوى «الاجتهاد» و«التجديد» و«نبذ الجمود»، إلى درجة التنكر التام للنظام الجزائي؛ من حدود، وعقوبات ثابتة بالآيات المحكمات، والأحاديث الصحاح، وإجماع المسلمين.

---

(١) انظر: الإسلام (٦٥).

(٢) انظر أصول الأصوليات والتعصبات السلفية: روجيه جارودي. مكتبة الشروق. القاهرة، طبعة يناير ١٩٩٦م (٣١).

(٣) انظر: الإسلام (٧٨ - ٨٠).

لقد كان جارودي يغمغم بهذه المعاني، ويحوم حولها في منتصف الثمانينيات، كما ورد في «وثيقة إشبيلية» عام ١٩٨٥م، حين طرح سؤالاً: «كيف نعمل لإحياء الإسلام؟» وأجاب بجملته المتكررة في كتبه:

«... يجب ألا نقرأ القرآن والسنة بعيون الأموات...

أما الذين سمعوه وفسروه فهم بشر، رجال ذوو عقيدة وإيمان، وفقهاء ينتمون إلى عصر محدد في التاريخ، وخليقٌ بنا أن ندرس فقههم بما هو أهل له من احترام، دراسة خالصة صادرة من أعماقنا، ممزوجة بما يشغل بالنا من ضرورة حل مشاكلنا كما حلّوا مشاكلهم من قبل، ولا يتأتى ذلك بتكرار ما قرروه من أحكام، ولكنه يتأتى باستلهام الوسائل التي طبقوها حتى يعيشوا إسلامهم في نطاق إمبراطوريتهم العربية الجديدة، وبلفظٍ آخر في ظروفهم التاريخية التي اختلفت من جذورها عن ظروف مجتمع المدينة...

أما الوحي القرآني فإنه يعطينا أمثلة مادية لحلول ساقها في معرض مشكلة تاريخية محددة، ابتداءً من القيم المطلقة، والمبادئ الثابتة الخالدة التي احتوتها الرسالة...

إن كل آية قرآنية نزلت من الملأ الأعلى إلى التاريخ، فلا مجال لتطبيق نصوص آية تطبيقاً حرفياً بمعزل تام عن مضمونها التاريخي التي نزلت فيه، وعن مجمل الوحي الذي يستوعبها...

إن لِلفظ (الشرعة) الذي استعمله القرآن للدلالة على القانون الإلهي (أي الشريعة)، لمعنى خاصاً، لأن الشرعة هي الطريق المؤدي إلى المنبع...

يمكن أن يعبر عن مشكلة مستقبل المسلمين بتعبير غاية في البساطة والوضوح:

فإما أن نتقهقر، وقد سُمّرت عيوننا على الماضي، نستعيد ما كتبه السابقون من تعليقات، وتعليقات على التعليقات، حول المسائل الفقهية التي ثارت في عصور الأمويين والعباسيين، وإما أن يبدي المسلمون مقدرتهم على حل المشاكل المستحدثة حلاً لا يفضي بالعالم إلى الفناء، وبذلك يستأنف الإسلام تقدمه وظفره، كما علا زمن القرن الأول الهجري، حيث أوجد الحلول للمشاكل التي خلفها انحدار الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية.»[1]

---

(١) وثيقة إشبيلية (١٧ - ١٩، ٢١ - ٢٢).

ثم أفصح عن هذا الإجمال في منتصف التسعينيات، ووضع النقاط على الحروف فقال في كتابه «الإسلام»، الصادر عام ١٩٩٦م، في معرض رده على الإسلاميين المنادين بتطبيق الشريعة الإسلامية: «ما يناسب تسميته (الإسلاموية) هو في أيامنا هذه: مرض الإسلام، لأن هذه الإسلاموية لا تميز (الشريعة) الدرب الأخلاقي الأبدي والكلي الذي فتحه كل الأنبياء باسم الله، من (التشريع) الذي يمكنها أن تُلهمه في كل عصر لحل مشكلات هذا العصر.

ويكمن هذا المرض، على سبيل المثال، في إرادة مفادها تطبيق القانون الجزائي السائد في القرن السابع، كاليد المقطوعة بسبب السرقة، أو الجلد، وبالسوط، بسبب الزنى.

ويضيف إليها الفقهاء، ضد القرآن الكريم، وباسم «التقليد» الرجم حتى الموت[1]، وفي إرادة مفادها تطبيق

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب فقال: «إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها، ووعيناها، وعقلناها، فرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها، وإن الرجم حق في كتاب الله، على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف». رواه البخاري (٧/ ٢٦)؛ ومسلم (٣/ ١٣١٧). أما جارودي فينكر أيضاً ما يجد في كتاب الله مثل حد السرقة – كما سيأتي.

القانون المدني والأحوال الشخصية، اللذين كانا يتوافقان مع شروط القرن السابع التاريخية، على الزواج والطلاق والمواريث...

والخطأ الأسوأ المميت بالنسبة لمستقبل الإسلام يكمن في الخلط بين القانون الإلهي الأبدي «الشريعة»، وما كان عليه الفقه «التشريع» في القرن السابع... .»

ويعقد فصلاً في كتابه هذا بعنوان: «كيف يمكن أن يتوطن إسلامٌ في مستقبلنا؟ ماذا يعني تطبيق الشريعة؟» يقول فيه:

«الادعاء بتطبيق حرفي لحكم تشريعي بحجة أنه مكتوب في القرآن الكريم، إنما هو خلطٌ بين القانون الأبدي، قانون الله، (الشريعة) التي هي (ثابت) مطلق، مشترك بين الأديان كلها والحِكم كلها – وبين التشريع المخصص للشرق الأوسط في القرن السابع الميلادي، تشريع كان تطبيقاً تاريخياً، خاصاً بهذه البلدان، وبهذا العصر، للقانون الأبدي...

والقانون الإلهي، الشريعة، يوحد المؤمنين كلهم، في حين أن الزعم بفرض تشريع القرن السابع الميلادي،

وللجزيرة العربية، على الناس جميعهم في القرن العشرين، إنما هو عمل يعطي صورة مزيفة رافضة للقرآن الكريم، إنها جريمة ضد الإسلام، وليس لـ (تطبيق الشريعة) الحقيقي أي علاقة بهذه الحرفية الكسول.»[1]

إذاً فقد كان يهدف من وراء عودته إلى التجديد والاجتهاد ونبذ الجمود والتقليد، إلى سلخ الأمة عن العمل بكتاب ربها، وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم، بحسبان تلك الشرائع «وقتية»، وذات مناسبة تاريخية، ليست لها صفة الديمومة، بل ربما سماها «عادات» و«تقاليد» عربية، فنزعها حتى من أصلها الشرعي، كما قال في مقابلة مع مجلة المستقبل في ٤ مايو ١٩٨٥م:

> إذا كان الإسلام يريد أن ينتشر ويتوسع، فعليه أن يتماشى مع حضارات الشعوب الأخرى. لكن إذا كنا نريد لانتشاره أن نفرض على كل مؤمنٍ جديد أن يصبح عربياً من القرن التاسع... فهذا يبدو غير معقول... كما أن الغرب في تلك الأثناء كانوا عرب القرن التاسع، أي أنهم لم يطلبوا من أحدٍ أن يصبح عربياً، ويتقيد بعادات وتقاليد العرب، لكي يصبح مسلماً. كان يطلب منه فقط أن يؤمن بالعقيدة الإسلامية.[2]

---

(١) الإسلام (٨١، ١٠٤، ١٢٦).

(٢) رجاء جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (٢١٧ - ٢١٨).

وما هذه الدعوة إلى نبذ الشريعة، إلا حلقة في سلسلةٍ متلاحقةِ الحلقات. يقول الأستاذ أنور الجندي: «لقد توالت المراحل في التشكيك في الشريعة الإسلامية، وأصالتها وربانيتها، ثم خُلقت الإشكالات لضرب الشريعة بالفقه، والفقه بالشريعة، ثم جرى الحديث حول مقولة باطلة هي الأنظمة الوضعية لا تختلف كثيراً. ثم توالت محاولات الخداع والتضليل فيه لإيقاف المد، حتى جاء من يطعن في تاريخ الإسلام، ويحاول أن يدعي أن الشريعة لم تطبق إلا فترة قليلة، ومنهم من أخذ يصور الخلفاء والأمراء المسلمين بصورة الظلم والعسف، ومنهم من حاول أن يراوغ في تفسير الآيات، ويدعي أن لكل عصر ظروفه، حتى جاء الببغاء الزئبقي، فنقل كل ذلك على لسانه، بعد أن أعلن إسلامه ليكون لساناً لهم وزعيماً - يريد جارودي ونقل بعض كلامه ثم قال: - وهو بذلك ينكر خلود الوحي والشرع، وامتداده إلى كل العصور والبيئات، وتلك فكرة ما تزال من رواسب الفكر الغربي الذي ما زال يعيش في أعماقه.»[1]

وقد أعوزه هذا السعي لطمس شريعة الإسلام، وهدم مبانيه العظام، إلى كفرٍ أعظم منه، لا يتم له مراده إلا به،

(١) تأصيل اليقظة، وترشيد الصحوة (١٧٩).

فصار يقول بتبجح وجرأة فاجرة بـ «تاريخية القرآن»، ويستهزئ بالسنة المطهرة، بالرد والتكذيب، أو التحريف المتعسف، وسلوك سبيل سلفه من الباطنيين القائلين بـ «رمزية النصوص» ومن شواهد هذا الكفر والضلال ما يلي:

١. دعوى تاريخية القرآن ورمزيته:

في عام ١٩٨٥م قال روجيه جارودي في وثيقة إشبيلية: «علينا أولاً أن نتعلم كيف نقرأ القرآن.»[١] وجاءت الإجابة المفصلة عام ١٩٩٦م في كتابه: «الإسلام» بما يلي: «أولاً: قراءة القرآن في التاريخ.»[٢] واتخذ من قضية النسخ التي هي من خالص حق الرب المشرِّع سبحانه، كتغيير القبلة، مدرجاً لمنح هذا الحق لمن هب ودب من الزنادقة أمثاله، كما تذرع باختفاء بعض المظاهر التي كانت سائدة طوال قرون مضت، وانحسرت في العقود الأخيرة كالرق، ووجود مواقع جغرافية يختلف فيها حسبان الليل والنهار في معرفة أوقات الصلوات والصيام وغير ذلك، مما تفطن له فقهاء المسلمين، تذرع بذلك إلى توسيع دائرة «التاريخية»، وأن الأحكام القرآنية مرتبطة بظروفٍ تاريخية معينة، وليست ملزمة ولا دائمة، فيقول:

---

(١) وثيقة إشبيلية (١٦).

(٢) الإسلام (٩٥) وما بعدها.

«وليست هذه (التاريخية)، تاريخية القرآن الكريم، أكثر وضوحاً في أي نص منها كما في النصوص الخاصة بالمرأة.»[1] ثم يشرع في اجترار شبهات المستشرقين حول «القوامة»، و«شهادة المرأة»، و«تعدد الزوجات»، و«الطلاق»، و«التمييز العنصري ضد المرأة»، و«ولاية المرأة»، و«حجاب المرأة»، و«ميراث المرأة»، مخوِّلاً نفسه حق الاعتذار عن الإسلام بأن «كل ذلك مرتبط بشروطٍ تاريخية معينة... وعلى عاتقنا تقع مسؤولية أن نجد الوسائل التاريخية في كل لحظة لتحقيق هذه الغايات المتعالية، كما يضرب لنا القرآن الكريم عليها مثلاً مجتمع المدينة. ويستبعد هذا التمييز القرآني الواضح كل حرفية، ويدعونا للتفكير في الأمثلة، ولا يدعونا لأن نطبق أحكاماً تشريعية تاريخية تطبيقاً أعمى على كل الأزمنة.»[2]

ويَمضي في ضرب الأمثلة على تاريخية القرآن – كما يزعم – فيطبق ذلك على أحكام الحدود، كحد السرقة مثلاً، داعياً إلى تعطيل النصوص القرآنية المحكمة الصريحة في ذلك بحجة تلك «التاريخية»[3] التي ابتدأ بها

---

(١) الإسلام (٩٩) وما بعدها.

(٢) الإسلام (١٠٣).

(٣) المرجع السابق (١٠٨ – ١١١).

الإجابة على سؤاله «كيف نقرأ القرآن؟». ثم ثنّى بـ «ثانياً: قراءة أمثال القرآن ورموزه»[1]، وفيها يهيم هذا الفيلسوف في أودية تحريفات المعتزلة، وإشارات الصوفية، وتخيلات الباطنية، زاعماً أن هذا التخبط هو مراد الله - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون - في ضرب الأمثال في القرآن، وأنه «رمزية» ناجمة عن تعالي الله[2]، وبالتالي فـ: «إنه لشرط ضروري للإفلات من انحرافات قراءة حرفية هَزُلت بفعل دوغماتية قرون عشرة من التفسيرات، أن تميّز ما هو مَثَل للدلالة على معنى، مما هو كلام تاريخي بوصفه جواباً مباشراً عن مسألة.»[3]

وحيث أفلت جارودي فعلاً من هدي النص القرآني، وجدناه في تمويهاته الرمزية يجمع بين الزمخشري[4] المعتزلي،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) من شواهد ذلك قوله: «عندما نقرأ: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] فهل نحتفظ في ذاكرتنا أن لله يدين؟ أم أنه غفور رحيم، وأننا نحس به كما نحس بحرارة يد من يحب ويعفو، وكما نحس أيضاً بحزم اليد التي تعيدنا إلى الصراط المستقيم.» انظر: الإسلام (١١٥).

(٣) المرجع السابق (١١٣).

(٤) الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري.. جار الله، أبو القاسم، كان معتزلي المذهب، مجاهراً، شديد الإنكار على المتصوفة، وعلى أهل السنة. من مؤلفاته الكثيرة: الكشاف، في التفسير. أساس البلاغة. انظر الأعلام (٧/ ١٧٨).

ومحمد عبده العصراني، ودانتي في كوميدياه الإلهية[1]، وابن عربي في معراجه، على وقع ألحان الأناشيد الفيدية[2]، في وحدة يهتف لها في مشروعه التقاربي.[3]

٢. الطعن في السنة المطهرة:

لما كانت السنة النبوية – على صاحبها أفضل الصلاة والسلام – الأصل الثاني من أصول الاستدلال، لكون صاحبها ﷺ معصوماً بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٣ – ٥]، والأمة مأمورة باتباعه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وذلك لأن

---

(١) الكوميديا الإلهية (*La Divina Commedia*) ملحمة إيطالية. ألفها دانتي الياري (١٣٠٠ – ١٣١٨م)، وضَمنها فلسفة العصور الوسيطة وعلومها. يصف فيها الشاعر رحلة وهمية مع عشيقته بباريس، قام بها في العالم الآخر بقيادة فرجيليوس الشاعر. تتألف من ثلاثة أقسام: الجحيم، الطهر، الفردوس. المنجد في الأعلام (٦٠٠). وقد جعل هذا الأفاكُ نبيَّنا محمداً ﷺ في الخندق التاسع من الحلقة الثامنة من طبقات الجحيم. ورغم ذلك يمجد هذا العملَ كثيرٌ من الأدباء المسلمين.

(٢) «الفيدا» أو «الويدا» أهم الكتب المقدسة عند الهندوس، «تُرى فيه مدارج الارتقاء للحياة العقلية من السذاجة إلى الشعور الفلسفي، وفيه أدعية تنتهي بالشك والارتياب، كما أن فيه تأليهاً يرتقي إلى وحدة الوجود.» الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة (٥٣٢).

(٣) المرجع السابق (١١٣ – ١١٢).

«السنة تفسر القرآن، وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عنه»[1]، عمد روجيه جارودي – كما فعل أشياعه من قبل – إلى محاولة الحط منها، وإقصائها، وزاد عليهم بالجراءة المتناهية والوقحة في رد الأحاديث الصحاح وتكذيبها، وتسفيه أهل الحديث، فيقول:

«لم يظهر في أي مكان من القرآن الكريم تعبير (سنة النبي)[2]. وهذا الغياب له ما يسوغه تماماً، لأن القرآن الكريم يوضح أن النبي، فيما عدا التنزيل، ليس سوى بشر مثل بقية البشر... أي أنه غير معصوم، ويرتكب أخطاء. ويوصي القرآن إذن المؤمنين بطاعته... وبأن يروا فيه قدوة... وذلك لا ينطوي على الإطلاق أن المسألة مسألة تقليده تقليداً أعمى في كل شيء. فهل يعني أن (الأحاديث) ينبغي أن ترفض جملة؟ كلا. ولكن الواجب يقضي استخدامها بتعقل. فمنها مجرد تكرار للقرآن الكريم، فهي ليست إذن ذات جدوى. ومنها ما يتناقض مع القرآن الكريم، وينبغي استبعادها. وثمة أحاديث أخرى تنصبّ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ١٣٨).

(٢) عجباً لهذه الحرفية المغرقة التي كان ينتقدها في دعوته للرمزية. فكيف والآيات المحكمات ظاهرة الدلالة على المعنى المراد. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧].

على أمور تافهة، حتى لدى (علماء الحديث) ذوي الشهرة، مثل البخاري [ثم مثّل بأحاديث تتبع الدباء في القصعة، وآداب الانتعال، وتوفير اللحى وحف الشوارب، وتمشيط الشعر، وقال:] فأي علاقة لذلك بالإيمان والعلم الذي يوحى به؟

والتحقق من صفة الشهود والنقل (المسمى علم الحديث) في مثل هذه الحالات ممارسة من الأفضل أن يخصص الزمن الذي يستغرقه فيها (علماء الحديث) الرسميون للتفكير في متضمنات القرآن الراهنة لحل المشكلات التي ترهقنا.»[1]

ويمتدح «المعتزلة» لزهدهم بالحديث النبوي قائلاً: «ويميز المعتزلة تمييزاً واضحاً كلام الله، الكلام الذي أنزله في (شريعة) القرآن الكريم، من الكلام البشري غير المعصوم... ومن هنا منشأ حذرهم أمام (الأحاديث)، وهي أقوال منسوبة إلى محمد ﷺ تكاثرت بعد موته خلال القرون الثلاثة الأولى.»[2]

فلا عجب بعد هذا أن يلَغَ جارودي في حياض السنة النبوية الشريفة، يصحح ويضعف، ويقبل ويرد، وفق ما

(١) المرجع السابق (٦٨ - ٦٩).

(٢) المرجع السابق (٦٥).

يمليه عقله وهواه، دون أدنى تحرج أو حياء، ومن أمثلة ذلك قوله: «منذ عهد الأمويين بدأ الاعتداء الأكثر إجرامية ضد الإسلام: الميل إلى أن يصنع منه إيديولوجية تبرير لسلطة الملوك المطلقة، ومدرسة خنوع بالنسبة للشعوب، أي ضرب من لاهوت السيطرة... يُقبل حديث في أوانه ليقول للمسلمين: (عليكم بتأدية الصلاة ولو وراء مرتكب الكبيرة أو معتد)[1] في حين أن قيادة الصلاة، وصلاة الجمعة على وجه الخصوص كانت الوظيفة الأولى للخليفة. وسيستقبل الإمام مالك هذا الحديث بوصفه صحيحاً...

وصِيغَ حديثٌ هدفُه محاربة هذه التمردات، وإلى الأبد، حديث يقدس الحاضر والماضي، فزُوِّر قول على لسان النبي ﷺ: (أفضل جيلٍ جيلي، ثم الجيل الثاني على الأخص ذلك الذي يأتي بعده، ثم الجيل يخلفه)[2]...

---

(١) لعله رواية بالمعنى للأحاديث الصحيحة الدالة على الصلاة خلف الأئمة أبراراً كانوا أم فجاراً كما هو معتقد أهل السنة والجماعة ومنهجهم. انظر شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٥٢٩).

(٢) يريد الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه -مرفوعاً-: «خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته». وفي رواية عند مسلم عنه أيضاً: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: ثم يتخلف من بعدهم خلف تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» صحيح مسلم (٤/ ١٩٦٢ - ١٩٦٥).

ويبرهن نص القرآن على بطلان حديث مزعوم، يروي أن النبي ﷺ كان قد لام أحد أنصاره على أنه يقرأ التوراة.[1] إنه نوع من الحديث المزيف، المتناقض على نحو جذري مع القرآن الكريم، الذي يقود إلى إفقار الإسلام وإشراقته بوصفه تنزيلاً أخيراً، لا يلغي التنزيلين السابقين بل يؤكدهما.»[2]

وقد توهم هذا المتهوِّك أن كون القرآن العظيم مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، يقتضي صحة ما بأيدي اليهود والنصارى حينذاك، وتعامى عن الآيات الكثيرة الدالة على تحريفهم الكلم عن مواضعه، ومن بعد مواضعه، وكتابتهم الكتاب بأيديهم، ثم قولهم هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. ولهذا لما ذكر الله تعالى التوراة والإنجيل في سورة المائدة، أردف بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ

---

(١) يشير إلى ما رواه الدارمي في مقدمته من حديث جابر، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ، فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسول الله ﷺ، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً. فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، لو كان حياً، وأدرك نبوتي لاتبعني» المقدمة (١١٥).

(٢) الإسلام (٦٨ - ٦٩، ٨٧ - ٨٨).

﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا﴾ [المائدة: ٤٨]، أي أميناً عليها وحافظاً ورقيباً، يبين صدق أهل الكتاب من كذبهم.[١]

٥) مضاهاة النصرانية:[٢]

سعى روجيه جارودي سعياً حثيثاً في مشروعه التقريبي بين الأديان إلى التقريب بين الإسلام والنصرانية بشكل خاص، وذلك بسبب نصرانيته المتجذرة في أعماق نفسه، التي لم ينفك أبداً عن إعلان تمسكه بها في جميع أطوار حياته، ومواقعه الفكرية المتنوعة، ولما يمثله أتباع هاتين الديانتين من ثقل كميّ ونوعي على وجه المعمورة. ومن ثمَّ فإن «إنجازاً» كهذا ظل يداعب مخيلة جارودي وأمثاله، ويصرح بهذا التقارب الخاص في واحدٍ من أواخر كتبه، فيقول: «إنهم كثيرون أولئك الذي يتطلعون في العالم المسيحي، كما في العالم المسلم، إلى توحيد قواهم، ليبنوا معاً القرن الواحد والعشرين بوجه إنساني أي بوجه إلهي،

---

(١) انظر جامع البيان «تفسير الطبري» (٦/ ٢٦٦ - ٢٦٨).

(٢) روى الإمام أحمد - رحمه الله - أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين فتح بيت المقدس قال لكعب الأحبار: أين ترى أن أصلي؟ فقال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك. فقال عمر - رضي الله عنه -: ضاهيت اليهودية، لا، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ. المسند (١/ ٣٨).

باسم إيمانٍ وحيد، بصورة أساسية عبر تنوع العبادات والطقوس.»[1]

وقد لا يجد جارودي صعوبةً في تأطير منظومته التقاربية بإطار «الإسلام الأزلي» للأديان الإبراهيمية، كما لا يجد حرجاً في تسويغ تنوع العبادات والطقوس، ولكن ما تراه فاعلاً في التناقضات الأساسية في أصول ذلك الإيمان «الوحيد» الذي ينشده بين الإسلام والنصرانية حول مسائل التوحيد، والتثليث، والعلو، والحلول، ونفي المثل، ودعوى البنوة، وغيرها من القضايا العقدية الماحقة لكل لونٍ من ألوان التقريب والدمج؟!

لقد سلك جارودي لتخطي هذه الحواجز الشاهقة مسلكين:

المسلك الأول: التهوين من شأنها بحسبانها خلافاً لفظياً حول حقيقة متفق عليها:

أ. التثليث:

انبرى جارودي، وهو الفيلسوف الذي سبر مختلف العقائد والنظريات ونقَدها بعمق، للدفاع عن الوثنيات النصرانية المتهافتة، ليرفع عنها تلك الوصمة التي لا يقبلها

---

(١) الإسلام (١٤٢).

قلب سليم، ولا عقل صحيح، زاعماً أنها لا تناقض ما جاء به الإسلام، مع نوع من المعاذير الباردة. فيقول: «ليس من الجد في شيءٍ أن يتهم الإيمان المسيحي بالتثليث، بأنه إيمان بثلاثة آلهة، حتى لو كانت الصيغ الهيلينية عن الثالوث في مجمع (نيقية) تفسح المجال بغموضها، لجميع الالتباسات، وقد ولدت أكثر من هرطقة.

يعلن القرآن التوحيد بقوة: (الله أحد... لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)، ولا تقول المسيحية شيئاً آخر: إن مجمع لاتران ١٢١٥م... يقول بالنص: (إن الحقيقة العليا هي في آنٍ واحد أبٌ وابنٌ وروحٌ قدس. وهذه الحقيقة لا تلد ولا تولد ولا تنبثق من غير ذاتها.)

ليس هاهنا إذن تشكيك بالوحدة الإلهية، وإنما هاهنا مجرد تعقيدها الذي لا يمكن أن يرتد إلى مفاهيم على الطريقة اليونانية.»[1]

والواقع أن كلاً من مجمع لاتران ١٢١٥م، وروجيه جارودي ١٩٩٦م لم يضيفا جديداً، ولم يقولا شيئاً آخر غير ما قاله مجمع نيقية عام ٣٢٥م، وهو التثليث الصريح الذي أنكره القرآن بكل الجِد، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا

(١) نحو حرب دينية. جدل العصر. (٢٣).

ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

ويشحذ جارودي سلاحه العتيق، «تاريخية القرآن»، لدفع هذه الوصمة عن أهل ملته، فيقول: «بوسع المرء أن يكثر الأمثلة على تاريخية القرآن الكريم هذه. فعندما نبذت، على سبيل المثال، فكرة أن مريم هي الشخص الثالث في الثالوث لدى المسيحيين، فإن إدانة هذه العبادة (عبادة مريم) كان لها على وجه الدقة تاريخها: كان (أوريجين) قد هاجم هذه (البدعة) لدى الكوليريديين... ولدى شعب الأورفيت، الذي كان لا يميز مريم العذراء من روح القدس. فالجدال يقع إذن في فترة محددة من التاريخ، ولن يكون له أي سبب للوجود في أيامنا هذه. إنه جدال ذو علاقة بالمعرفة التي كانت لدى المسلمين في زمن محمد ﷺ، معرفتهم المسيحية. والرسالة معبر عنها في لغتهم.»[1]

وفي هذه الشهادة من جارودي، دليل على أن من قال من المفسرين المسلمين أن النصارى يعدون مريم أحد الثالوث لم يتقول عليهم – كما زعم بعض النصارى العرب، ليتخذ ذلك دليلاً على أن النصارى المكفَّرين في القرآن غير

(١) الإسلام (١١٢).

المعاصرين – ولكن كون مريم ابنة عمران رضي الله عنها ليست أحد الأقانيم، في ثالوث المعاصرين – وعموم النيقاويين – لا يعني براءة هؤلاء من التثليث من جهة، إذ هو خلاف في تعيين الأقنوم الثالث فقط، كما لا يعني براءتهم من عبادتها التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، فتأليهها قدر زائد على حسبانها أحد الأقانيم، وذلك بصرف الدعاء والرجاء والتضرع إليها، مما تطفح به الطقوس الكنسية، والأدب النصراني.

ومن ثم فتعطيل الآية عن دلالتها بدعوى التاريخية دعوى ساقطة، يتعلق بها النصارى الشرقيون والغربيون. فنصارى الأمس هم نصارى اليوم – عقدياً – سواءً بسواء.

لقد كان اللائق – على الأقل – بجارودي الذي يدعو إلى الإسلام الأزلي، وإيمان إبراهيم عليه السلام، أن يدعو النصارى إلى إبطال هذه المقالة الكفرية بدلاً من الاعتذار، والمماحكة بالباطل.

ب. ألوهية المسيح وبنوته:

يقول جارودي: «والجدل الخاطئ الآخر يدور حول ألوهية المسيح، وهو ناشئ عن اللاهوتيين، لا عن الإنجيل

ولا عن القرآن. يقول القرآن: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. يسوع إذن مخلوق الله، مثل آدم.

بولس نفسه يدعوه (آدم الجديد)... وهذا النص الذي يعود تاريخه إلى السنة العاشرة للهجرة جزء من الجدل بين محمد ﷺ ونصارى نجران حول ألوهية المسيح الذي كانوا يعدونه (ابنَ الله)، والقرآن الكريم، كما رأينا لا يقول شيئاً آخر حين يجعل يسوع كلمة الله وروحه. لكن هل تقول الأناجيل شيئاً آخر؟ لا يقول يسوع في أي مكان: أنا الله. إنه الابن الخاضع كل الخضوع لله. والترجمة الممكنة الوحيدة للخاضع لله هي (المسلم) أمره لله، (فإنه قد قال أنا ابن الله) متّى ٢٧/ ٤٣.»[1]

إن جارودي يزعم أنه يحسم الجدل القائم بين المسلمين والنصارى بالقول بأن التعبير القرآني في وصف عيسى عليه السلام بأنه كَلِمَتُهُ ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] مطابق لوصف النصارى إياه: «ابن الله» وأنهم لم يؤلهوه. وقد غالط من وجوه:

- أن معنى «كلمته ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾» «أي: إنما هو

(١) نحو حرب دينية. جدل العصر (٢٣ - ٢٤).

عبد من عباد الله، وخلق من خلقه، قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم: أي خلقه بالكلمة. التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذن الله عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله عز وجل. ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكان. والروح التي أرسل بها جبريل.»[1]

▪ أن جارودي فَرَّ من زاوية الكفر إلى زاوية أخرى حين حمل دعوة «التأليه» على «البنوة»، فهل خفي عليه إنكار القرآن لهذا التعبير الكفري المقتضي لِلوازم الفاسدة من المماثلة بوجه من الوجوه بين الخالق والمخلوق، والغلو بغير الحق، والإطراء المذموم؟ وقد عاب الله عليهم هذه المقالة، وعدَّها من مضاهاة مقالات الكفار الوثنيين، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٧ - ٤٧٨).

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١]فتبين كذب ما كتبوه بأيديهم على لسان عيسى عليه السلام «أنا ابن الله»، وبرأه الله مما يقولون.

▪ زعْمُ جارودي أن البنوة تعني الخضوع، أو إيهامه بذلك، دعوى لا دليل عليها، ولا تتسع لها لغة، ولا يقول بها عامة النصارى. فإن كان هذا إنكار منه لفرية البنوة فليقلها صريحة، وليدْعُ النصارى إلى التبرؤ من كل لفظٍ ينافي توحيد الله. وإن كان ذلك لوناً من التوفيق فهو ما يتعين دفعه ورده.

ثم إن حَيدة جارودي عن تهمة «تأليه المسيح» إلى «دعوى البنوة»، بحسبانه جزءاً من الجدل بين محمد ﷺ ونصارى نجران، هل يعني تنصل النصارى من هذه المقالة البشعة التي أكفرهم الله بها في موضعين في سورة واحدة بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]؟ هذا ما لا يستطيع جارودي إثباته مهما تفنن في تشقيق الكلام، وتأويل اليقينيات.

نعم، صدق جارودي حين قال: «لا يقول يسوع في أي مكان: أنا الله» وحاشاه عليه السلام، وإنما قال: ﴿يَا

بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. إنما تقوّل ذلك عليه بولس وأتباعه، كما سيتضح من المسلك الثاني الذي سلكه للتقريب على الصعيد العقدي.

المسلك الثاني: التنظير بين عقائد النصارى، ومقالات أهل وحدة الوجود والحلول، المنسوبين إلى الإسلام.

نزعة جارودي نحو التصوف، وإعجابه بأربابه من مختلف الديانات نزعة قديمة سابقة لدعوى إسلامه.[1] إلا أنه وجد في غلاة الصوفية المنتسبين إلى الإسلام من أمثال ابن عربي، وجلال الدين الرومي، والحلاج، بغيته للتسلل إلى تقريب الإسلام إلى النصرانية من باب التصوف، وعلى وجه الخصوص، مسألة «الحب»، بوصفها العامل المشترك الذي يهيم حوله الصوفية، ويلهج به النصارى، وإن برؤىً مختلفة نسبياً.

يقول جارودي: «إن تصور الحب هذا نابعٌ مما هو الفكرة الرئيسة في الرؤية الإسلامية: التوحيد، وعي الإنسان أنه لم يوجد إلا بأمر الله، ولا يفعل شيئاً إلا بأمره، وذلك يستتبع كما هي الحال في المسيحية، الانسلاخ من

(١) انظر: روجيه جارودي والمشكلة الدينية (٢٦٢).

(الأنا الصغيرة)، كي ندع المكان كله فينا لله، للواحد، وللكل. وذلك هو أساس الوحدة العميقة بين التصوف المسيحي والصوفية الإسلامية، التي ستبلغ أوجها في الأُخوة الروحية بين ابن عربي وسان جان دي لا كروا مع فرق ثلاثة قرون.»[1] ويقول: «الأنا في الإسلام بدت لي متحررة تماماً من البعد الحسابي، إنها الكون، ولقد فتنني كثيراً أولئك المتصوفة الذين أدركوا بعمق يثير الدهشة حقاً تلك المسافة اللاغية، أو لنقل ذلك الحضور الغائب بين الأنا الإلهية والأنا البشرية.»[2]

ويقترب أكثر من عقيدة الحلول التي يشترك فيها النصارى وغلاة الصوفية حين يقول: «إن عيسى المسيح رمز وحدة الإنسان والله. كاشف الواحد والكل لدى الصوفيين. وكاشف الحب، أي التعبير عن وحدتها. والرسالة الأساسية لعيسى المسيح التي يجعلها الصوفيون رسالتهم، هي بالنسبة لهم الحب في صورته الأسمى: الحب النابع من الله، الحب الذي يرجع إليه، شأنه شأن كل واقع.»[3]

---

(١) نحو حرب دينية. جدل العصر (٢٧).

(٢) من مقابلة مع مجلة الموقف العربي. ديسمبر عام ١٩٨٧م.

(٣) الإسلام (١٩).

ومن ثمَّ فإن جارودي لا يجد حرجاً – رغم ادعائه الإسلام – أن يقول في كتاب صدر عام ١٩٩٦م: «مع يسوع صار الإله إنساناً، وصار الإنسان إلهاً في برعمه... ما الذي يمكن أن يخشاه إنسان يعلم بطريقِ يسوع أنه مسكون بالله؟»[١]

فما أسهل تقبل فكرة الحلول الإلهي بالمسيح الجثماني – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – لدى الفكر الصوفي الذي يوسع دائرة الحلول والاتحاد لتشمل جميع الكائنات. وذلك سر القربي والرحم بين جارودي والصوفية، فلا عجب أن يقول: «إن تجريم الصوفية هو جريمة ضد الإسلام... الصوفية هي باطنية الإسلام. فلعل إسلاماً بلا باطنية، إسلاماً مقتصراً على طقوسه، دون حب الله الذي يعطيها معنى، هو إسلامٌ ميت. وكل إحياء للفكر الديني للإسلام يمر عبر إعادة الاعتبار للتصوف.»[٢]

٦) تمجيد ملل الكفر، ودعوة المسلمين إلى الانفتاح عليها والتلاقي معها:

ينعى جارودي على المسلمين انغلاقهم على ذواتهم، وجمودهم على نصوصهم الخاصة – في زعمه – ويدعوهم

(١) نحو حرب دينية. جدل العصر (٥٨).

(٢) الإسلام في الغرب (١٦٦).

إلى الانخراط في العالم المعاصر بصفة مشارك يحترم تراث وثقافة الآخرين من سائر أمم الكفر والضلال، فيقول في وثيقة إشبيلية عام ١٩٨٥م: «هناك مشكلتان داخليتان رئيسيتان تحجبان إشراقة الإسلام اليوم، وهما:

أ. الاستكفاء والجهل بالغير... والإسلام اليوم لن يستطيع أن يستأنف مسيرته إلا إذا وسِع كلَّ حكمة، وكل عقيدة، يمكن أن يتضمنها ويضمها إليه.

ب. زهو النصر: وهو الادعاء القاتل بوجود إجابات مستكملة جاهزة صيغت منذ ألف سنة على يد الفقهاء وما خلفوه من تراث... .»[1]

وقد تعقبه الدكتور سعد عبد المقصود، بقوله: «واتساع الإسلام لكل حكمة أمر على إطلاقه غير مفهوم. واتساعه لكل عقيدة أمر في غاية الخطر، لأنه يؤدي إلى انهيار قواعد الإسلام من أساسها، وضمها إليه فيه خطر الاتساع في العقيدة، وهما بتفسير بسيط يتمثلان في أن يتقدم الإسلام خطوة ويترك قواعده الصحيحة، وتتقدم الأديان الأخرى خطوة لتلتقي الأديان كلها في منتصف الطريق، وهذا ما يطمع فيه كل أصحاب الأديان

---

(١) وثيقة إشبيلية (١١ - ١٢).

والمذاهب الإلحادية، ويرون فيه ضالتهم المنشودة في القضاء على الإسلام وأهله. إذ إن ترك القواعد الصحيحة، والزحزحة عنها، تؤدي كلها إلى عدم اليقين، وعدم الإيمان بأركان صحيحة، وشيئاً فشيئاً يبعد المسلمون عن مواطن ثباتهم، ويتزحزحون عن دينهم، بقدر ما يقربون من مذاهب التصقت ببشرية البشر، أو سيطر عليها الفكر البشري، وهذا ما يوده أهل الديانات الأخرى، كما أشار القرآن: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].(١)

ثم ينهي الوثيقة بتوجيه هذا النداء العام:

«ندعو الناس كافة، على مختلف نحلهم وعقائدهم، يهوداً، أو نصارى، هندوكيين، أو إنسانيين، من الذين يعون أن الإنسان لا يستغني بنفسه عما سواه، ندعوهم إلى أن نتعاون جميعاً لإنقاذ العالم من إفلاسه الأخلاقي، ومن الهلاك الذي ينتظره، وذلك أن نعيد للإنسان بعده

(١) لا لجارودي ووثيقة إشبيلية (٥١).

القدسي. ويجب ألا تَغمر الخصوصياتُ والتقاليد، هذه العالميةَ الإسلامية ولا رسالته التي تدعو الناس كافة من أهل كل ملةٍ وحكمة وعقيدة لينقذوا العالم من غوايات تجره إلى الهلاك.»[1]

تُرى أي غواية أعظم من الكفر بالله وتكذيب رسوله، يستنجد جارودي باليهود والنصارى والهندوس، والملحدين الإنسانيين أن ينقذوا العالم منها؟ أما كان يتحتم على من زعم الإسلام، وتحدث باسم المسلمين الأوربيين في مؤتمر إشبيلية، أن يوجه الدعوة إلى الناس كافة على مختلف نحلهم وعقائدهم إلى عبادة الله وحده، واتباع رسوله ﷺ، بدلاً من دعوتهم إلى التعاون لإنقاذ العالم مما هم واقعون فيه؟ وفاقد الشيء لا يعطيه.

ويطرح الدكتور سعد عبد المقصود سلسلة من التساؤلات حول دعوة جارودي هذه فيقول: «كيف يجتمع أهل الملل والنحل مع الذين لا يؤمنون بملة ولا نحلة ولا بمذهب؟

وكيف يجتمع المسلمون مع اليهود والنصارى؟ والإسلام قد ألغى هذه الديانات ولم يبق لها إلا وجودها

---

(١) وثيقة إشبيلية (٢٣).

التاريخي، إن اجتماع المسلمين باليهود والمسيحيين في مؤتمر ديني باسم الإسلام يعني اعتراف المسلمين باليهودية والمسيحية، وهذا باطل.

وكيف يجتمع الهندوكيون، وهم لا يؤمنون بدين سماوي مع المسلمين واليهود والنصارى وهم يؤمنون بدين سماوي؟

ثم كيف يجتمع المؤمنون بدين سماوي مع الإنسانيين الذين فسرهم رجاء جارودي بأنهم الذين يؤمنون بالإنسان كفكرة مطلقة، ووجوب العمل لخيره...

ثم لم يبين كيف تتفاهم هذه الأمشاج الدينية، وتلك الأخلاط غير المتجانسة؟ وماذا يبحثون؟ وكيف؟ وما منهجهم؟ وما وسيلتهم لبعث ثقافة جديدة لا تفصل بين العلم والحكمة والعقيدة؟ كيف يصلون إلى هذا الغرض وهذه النتيجة؟

ولا يمكن أن تأتي هذه الدعوة الخبيثة غير المسبوقة، بنتيجة إيجابية لصالح جماعة أو ملة، اللهم إلا إذا كان يترتب على أساسها تنازل كلٍّ أصحاب ملة عن بعض معتقداتها، ليلتقي الجميع على رماد الانحراف. هل يكون القصد تدمير العقيدة الراسخة، التي يدعو إلى الوحدة

بينها وبين العلم والحكمة؟

هل يكون قصده نسف فكرة التداني بالقرآن الكريم، والتمسك به والاعتصام بحبله؟

إن اجتماع الطوائف من أصحاب الملل والنحل وأصحاب الديانات الصحيحة وغير الصحيحة في ملتقى أو مركز دائم، أو جامعة، حسب ما رسم الأخ جارودي، يعني القصد المباشر إلى النيل من الإسلام وإرهاقه، تطبيقاً لقاعدة الصحة والسلامة، والوقاية خير من العلاج.

فالمرضى من أصحاب المعتقدات الباطلة، وأصحاب المعتقدات المنحرفة وأصحاب المذاهب البشرية، سوف ينقلون العدوى، وسوف تشيع الأوبئة، حتى لو تحصن الأصحاء، لأن الوباء إن لم يقتل فسوف يحدث أثره دون شك.»[1]

إن هذا النداء ينم عن حقيقة إسلام هذا الرجل، وهوان الإسلام الحق عليه، والريبة التي اكتنفت دعوى إسلامه، وما يرمي من ورائه.

---

(١) لا لجارودي ووثيقة إشبيلية (٨٤ - ٨٦).

ثالثاً: محاولات روجيه جارودي العملية للتقريب بين الأديان والحضارات

اتخذ روجيه جارودي جملة من الإجراءات العملية للتعبير عن تطلعاته الفكرية. فبحكم طبيعته «الحركية» لم يكتف بالنتاج المكتوب، بل كان له حضورٌ فاعل، وحركة دائبة، وسفر متصل إلى كثير من دول العالم كما تبين في سيرته.

وفي سعيه الحثيث لإرساء مشروعه في توحيد العالم، أو التقريب بين حضاراته المختلفة، تمكن جارودي من تأسيس وإنجاز بعض المشاريع العملية، إثر فك ارتباطاته بالحزب الشيوعي الفرنسي، وهي:

١. المعهد الدولي للحوار بين الحضارات.

٢. الملتقى الإبراهيمي في قرطبة عام ١٩٨٧م.

٣. مؤسسة روجيه جارودي – المركز الثقافي في القلعة الحرة.

١) المعهد الدولي للحوار بين الحضارات:

انبعثت فكرة هذا المعهد لدى جارودي في أواخر

الستينيات، ويصف الانبعاث بقوله: «لقد سبق لي، بعد أن كنت طيلة اثنتي عشرة سنة من حياتي، كقائد شيوعي، المحرك في فرنسا، وفي أوربا، للمحاورات بين المسيحيين والماركسيين، أن عملت في عام ١٩٦٨م على لفت نظر المجمع المسكوني للكنائس، في جنيف، إلى أن هذا الحوار سوف يظل (إقليميًّا) لأنه كان لا ينمو إلا بين أعضاء منطقة ثقافية واحدة: منطقة الغرب. وأنه من المهم بعد الآن ألَّا نجعل من هذه المحاورات سوى إدارة لحوار أعم، هو (الحوار بين الحضارات)، حيث يمكن أن يتم إخصاب متبادل في حوار يعرف كل واحدٍ فيه الانفتاح على حقيقة الآخر، دون أن ينقص فيها حِكَمَها، وكذلك على ثورات آسيا والإسلام وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، على نفس منوال المحاورات في الغرب.»[1]

إذاً فقد كانت البداية رغبة في تطوير وتوسيع دائرة الحوار النصراني الماركسي لتشمل بقية الثقافات العالمية.

ثم تمكن جارودي من تنفيذ فكرته، بالتعاون مع منظمة اليونسكو، فأسس «المعهد الدولي للحوار بين الحضارات»

---

(١) من أجل حوار بين الحضارات: روجيه جارودي. ترجمة: د. ذوقان قرقوط. دار النفائس – بيروت. الطبعة الأولى (١٤١١هـ - ١٩٩٠م). (٢٢٥ - ٢٢٦).

عام ١٩٧٤م في جنيف، وعمل مديراً له. ومكنه الدعم القوي للمنظمة، وجهاتٍ ودولٍ أخرى، من التجوال في العالم، وإقامة علاقات ثقافية مع أكبر المؤسسات الثقافية العالمية، وجمع مواد توثيقية عن مختلف الحضارات العالمية، ثم الانكباب على دراسة تلك الحضارات وقراءة تراثها بروحٍ شمولية.[1]

وقد توَّج هذه الدراسات الميدانية والتراثية بتأليف كتابه الشهير «من أجل حوار بين الحضارات» (*Pour un dialogue des civilisations*) عام ١٩٧٧م، الذي أحدث ضجة ثقافية في العالم، وحاز مؤلفه على جائزة البحر المتوسط في إيطاليا.

وقد انطلق في مشروعه هذا من تحطيم فكرة «تفوق الغرب» وفرادة «الحضارة الغربية» بنقدٍ رصين، وضرورة وضعها في حجمها الطبيعي دون مغالاة، ليتم له بعد ذلك التحرر من إسارها وبهرجها، وإدراجها في مشروعه الكلي للحضارة الإنسانية المستقبلية، أو ما يعبر عنه بـ «ابتكار مستقبلٍ ذي وجهٍ إنساني».

---

(١) انظر مقدمة «من أجل حوار بين الحضارات» (١١ - ١٧)، ومقابلة في كتاب: روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (١٥٧).

يقول في مقدمة كتابه: «الغربُ عارِض. تلك هي الحقيقة الأولى المسلَّم بها في كل ارتياد للمستقبل. فإن طريقة الغربيين في النظر للفرد، على أنه المركز والمقياس لكل شيء، في إنقاص واقع الشيء إلى المفهوم، أي رفع العلم والتقنيات إلى قيم مثلى، كوسيلةٍ لمعالجة الأمور والناس، هي استثناء صغير جداً في الملحمة البشرية التي يبلغ مداها ثلاثة ملايين سنة. فهذا الوجه المشؤوم للدور الذي يلعبه الرجل الأبيض في التاريخ هو ما أدعوه بـ (الشر الأبيض)...

على أن خلق مستقبل حقيقي يتطلب بأن تكون قد استردت جميع الأبعاد المتطورة للإنسان في الحضارات والثقافات غير الغربية بـ (حوار الحضارات). هذا فحسب يمكن أن ينشأ مشروع على مستوى الكوكب الأرضي كله، من أجل ابتداع المستقبل، من أجل ابتكار مستقبل الجميع، بمشاركة الجميع، ذلك أن التجارب الحالية لآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية... تتيح لنا أن نضع، منذ اليوم، خطوط هذا المشروع على مستوى الكوكب الأرضي للقرن الواحد والعشرين، مشروع الأمل.»[1]

---

(١) من أجل حوار بين الحضارات (١١ - ١٢).

وبعد أن طوَّف في حضارات العالم؛ شِعرها ونثرها، معابدها ومسارحها، عامرها وأطلالها، فلسفاتها وديانـاتها، عقد فصلاً أخيراً بعنوان «الحِلف الثالث» أشار فيه إلى ثلاثة أحلاف: «كان الحلف الأول حلف يَهْوَه مع الشعب اليهودي. وبدأ الحلف الثاني عندما أبان يسوعُ المسيح أنه من أجل السعي إلى الله فلا بد من الإقلاع عن دعوى الانتماء إلى الشعب المختار. ولكن من هنا ولدت كنيسة، ما إن وصلت إلى السلطة... وعلى نحو مُوارب جرت العودة، حتى مع أفضل النوايا التبشيرية في العالم، إلى الادعاء مرة أخرى بالشعب المختار. وكان الشعب المختار في هذه المرة هو الغرب...

لقد أزِفت ساعة الحِلف الثالث، الحلف الذي سيستأنف في مرحلة جديدة مسعى يسوع المسيح، متجاوزاً حدود الـ (شعب المختار)، ليتوجه إلى الجميع لا من أجل هدايتهم إلى معتقد، ولكن من أجل إيقاظهم على حياةٍ أكبر... فالحلف الثالث هو الإيمان الذي يعثر من جديد على جذوره في صميم الشعوب، وهو الشعوب المستمدة من إيمانها القوة والأمل في تغيير العالم والحياة.»[1]

(١) من أجل حوار بين الحضارات (٢٢٠ – ٢٢١، ٢٢٦).

وفي مشروع جارودي هذا، كما انطلق من فكرة حوار بين الحضارات المختلفة، تكون النصرانية دوماً أحد طرفي ذلك الحوار. فقد ظلت تصاحبه رؤاها وأهدافها وتجديد مسعى يسوع عبر الحِلف الثالث. ولم ينقض اعتناقه للإسلام عروة هذا الحلف، أو يغير وجهة المعهد الدولي لحوار الحضارات، وقد استمر جارودي بعد أن دخل عالم الإسلام يطوف بلاد المسلمين – وإمارات الخليج خاصة – ويبشر بأهدافه ويجمع له المساعدات، مع تطعيم تلك الأهداف بجرعة أكبر من معاداة الصهيونية وإسرائيل[1].

وبعد عشر سنوات من صدور كتاب «من أجل حوار بين الحضارات» نظَّم المعهدُ الدولي للحوار بين الحضارات مؤتمراً بين المسلمين والنصارى واليهود باسم:

٢) «الملتقى الإبراهيمي»:

وقد عقد في مدينة «قرطبة» في إسبانيا في الفترة: ١٢ – ١٥ جمادى الآخرة عام ١٤٠٧هـ الموافق، – أيضاً – ١٢ – ١٥ فبراير عام ١٩٨٧م، وضم خمسين مشاركاً.

---

(١) انظر مقابلات جارودي – بعد إعلان إسلامه – في جريدة البعث السورية ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م.

وقد أفصح جارودي عن طبيعة هذه التسمية التي تطلق لأول مرة في فضاء الحوار بين الأديان، فقال في مقابلةٍ صحفية مع مجلة (Cambio 16) في ٩/ ٢/ ١٩٨٧م ص (١٩) – أي قبل انعقاد المؤتمر بثلاثة أيام:

«لقد عرفت (الإيمان الإبراهيمي) عن طريق كيركجارد[١] Kierkegaard، واليوم أقوم بهذه المبادرة – الحوار الإبراهيمي- بالاشتراك مع أصدقائي اليهود والكاثوليك والبروتستانت، فإني أتابع المسير بقصد تجميع الإيمان الإبراهيمي. وما أجده في القرآن من أن إبراهيم هو أبو الأنبياء، قد وجدته منذ عشرين عاماً عند كيركجارد.»[٢]

وقد حرص جارودي على تمثيل جميع الأديان، بل

---

(١) كيركجارد (Kierkegaard) (١٨١٣ – ١٨٥٥م): سورين كيركجارد أو «كيركغارد» فيلسوف دنمركي. عَد مراتب الوجود ثلاثاً: جمالية وخلقية ودينية. الجمالية مناطها اللذة، والخلقية مناطها الواجب، لكن الدينية أرفعها، لأن الأنا فيها يختار أن يوجد أمام الله، ويرتبط بالمتعالي. الموسوعة الفلسفية (٣٨٨). وقد تأثر به جارودي تأثراً بالغاً، وحمل عنه فكرة «الإبراهيمية». انظر: فلسطين أرض الرسالات الإلهية: روجيه جارودي. ترجمة وتعليق وتقديم: د. عبد الصبور شاهين. دار التراث. القاهرة. طبعة ١٩٨٦م. (٦٣٠).

(٢) عن سلسلة تقارير المعلومات: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت رقم المسلسل ١٤/ ٨٧ بتاريخ ٢١/ ٧/ ١٩٨٧م (٢).

والطوائف الكبرى – وربما غير ذلك – من كل ديانة، في أعمال المؤتمر، كما حرص على استقطاب المشاهير، فجاءت على النحو التالي:

أ. **اليهود:**

١. إلمر بيرجر: هو حاخام يهودي من قدامى الداعين إلى تقارب الأديان، حيث «أنشأ (جماعة أصدقاء الشرق الأوسط). وأعلن أنه يهودي وليس صهيونياً، وأن هذه الدعوة بدأت في نفس الوقت الذي قام فيه الكيان الإسرائيلي على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م»[١]، ولكنه اعتذر عن الحضور، واكتفى بإرسال دراسة بعنوان «الوعد».[٢]

٢. يهودي مناحيم: وهو كاتب وعازف كمان مشهور. وقد اعتذر أيضاً وأرسل معزوفةً موسيقية مسجلة، سُمعت في المؤتمر.[٣]

٣. إميل معاطي: ممثل الجالية في فرنسا، إلا أنه حضر في اليوم الأخير، وأثار ضجة إعلامية بسبب تبنيه

---

(١) تأصيل اليقظة، وترشيد الصحوة: أنور الجندي. دار الاعتصام. (١٧١).

(٢) جريدة الدستور الأردنية. موضوع «عائد من الندوة الإبراهيمية» كامل الشريف، الأحد ١/ ٣/ ١٩٨٧م (٥).

(٣) المرجع السابق.

الأفكار الصهيونية بما لا يتفق وأفكار جارودي.

وأما الجهات اليهودية المدعوة فبعثت برسائل تأييد للمؤتمر، واعتذار عن الحضور، كما كانت إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي بعثت بعثة إعلامية كاملة لتغطية الملتقى.[1]

ب. النصارى:

١. القس الألماني هانس كونج (Hans Küng)، وهو لاهوتي كاثوليكي مشهور، يعمل مديراً لمعهد أبحاث توحيد الكنائس، وأستاذاً بجامعة توبنجن.

٢. الكاردينادل دوم هيلدر كمارا: من أشهر أساقفة «لاهوت التحرر» البرازيليين الكاثوليك، وحائزٌ على جائزة نوبل للسلام. وهو صديق حميم لجارودي تجمعهما رؤى مشتركة وعهود ثنائية، ويلقب بـ «نبي الشيوعية».

٣. غوستافو غوتييريز: أبٌ كاثوليكي، مؤلِّف كتاب «لاهوت التحرر» عام ١٩٧١م، وهو من البيرو.

وهـؤلاء الثلاثة ليسوا على وفـاقٍ مع الكنيسة الكاثوليكية في روما.

---

(١) المرجع السابق.

٤. الأب ميشيل لولونج: رئيس لجنة العلاقات المسيحية الإسلامية في الكنيسة الفرنسية، وعضوٌ سابق في الأمانة العامة الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين.

٥. فرانسيس لامان: محام دولي، والرئيس التنفيذي للجنة «الإسلام والغرب». وقد كان أستاذاً بكلية القانون والشريعة بجامعة الكويت. وهو كاثوليكي أيضاً.

٦. يورغن مولتمن: بروتستانتي. أستاذ اللاهوت في جامعة «توبنجن» الألمانية.

٧. ليوبولد سنغور: الرئيس السابق لجمهورية السنغال المسلمة عام ١٩٦٠م.

جون تايلور: السكرتير العام للمؤتمر العالمي من أجل السلام (WCRP).

ت. المسلمون والمنتسبون إلى الإسلام:

١. الأستاذ كامل الشريف، رئيس المكتب التنفيذي للمؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس. أردني.

٢. الدكتور محمد أبو السعود. اقتصادي، صديق خاص لروجيه جارودي. مصري.

٣. شيخ بو عمران، رئيس معهد الفلسفة في جامعة

الجزائر، جزائري.

٤. عبد الهادي بو طالب. المدير العام لمنظمة الإيسيسكو «المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة».

٥. الدكتور مختار كريم أمبو. المدير العام لمنظمة اليونسكو، ومدير الملتقى.

٦. أحمد جنتي، شيعي إيراني.

٧. محمد علي التسخيري، شيعي إيراني.

٨. الدكتور عبد السلام، قادياني، حائز على جائزة نوبل في الفيزياء.

٩. صدر الدين أغا خان. إسماعيلي.

١٠. روجيه جارودي.[١]

لقد اختار جارودي ضيوفه بعناية بما يتفق وأبعاد مشروعه التقاربي.

---

(١) أخذت الأسماء من تقرير «تساؤل مؤتمر الحوار الدولي للوحدة الإبراهيمية» من سلسلة تقارير المعلومات الصادرة عن مركز المعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت في ٥/ ٣/ ١٩٨٧م. ومقالة الأستاذ كامل الشريف في جريدة الدستور الأردنية «عائد من الندوة الإبراهيمية» عدد الأحد ١/ ٣/ ١٩٨٧ (٥).

فاختار من اليهود من يعلن رفض الصهيونية، وينحو نحو التقارب، باستثناء إميل معاطي الذي وصل بطريقة غير مقصودة، وبعد انتهاء أعمال الملتقى.

ومن النصارى من عُرف بتحفظه أو معارضته لبعض ممارسات الكنيسة الكاثوليكية ومعتقداتها، كعصمة البابا، والتنظيمات المعقدة للرتب الكنسية وشكليتها، كهانس كونج وأساقفة أمريكا اللاتينية. ومن المسلمين مزيج من المنتسبين إلى السنة المعادين للصهيونية، وشيعة ليبراليين، وقادياني، وإسماعيلي يمثلون الباطنية التي يشيد بها جارودي ويسعى لإبرازها، وتمجيد رموزها. بالإضافة إلى المنظمات الثقافية العالمية.

وغاب عن المؤتمر الهيئات الإسلامية المشهورة، إما لكونها لم توجه إليها دعوة أصلاً، وإما لتحفظها وحذرها من توجهات جارودي الداعية إلى إزالة الفوارق، وتمييع الحدود بين الأديان، سيما وقد شهدت مدينة «قرطبة» ثلاثة لقاءات إسلامية – نصرانية سابقة، كان آخرها قبل أقل من أربعة أشهر من عقد هذا المؤتمر، في أكتوبر عام ١٩٨٦م، وحظي بتمثيل واسع من الجهات والدول الإسلامية، لكونه لا يبلغ في طروحاته المستوى الخطير الذي ينادي به جارودي.

أما أبرز موضوعات الملتقى وبحوثه، فكانت على النحو التالي:

١ - **«اللقاء الإبراهيمي» لروجيه جارودي**: استهله بعرض القصة التي أوردها الراهب النصراني رامون لول - والذي يعُده جارودي رائداً للحوار - في كتابه: «الوثني والحكماء الثلاثة» (*Livre du gentil et des trois sages*)، حيث يقدم كل من هؤلاء الثلاثة يهودي، ونصراني، ومسلم دينه للوثني (gentil) الذي اكتشف وحدة المعنى رغم اختلاف الطقوس... ثم انبهروا من نبل صلاته![1]

«والآن أصبح الثلاثة يحسون بأنه مهتمون، ولم يتقبلوا معرفة (أي من القوانين الثلاثة يمكن أن يختار)، لأنهم علموا بالوحدة الراسخة لإيمانهم، وكذا بالذنب المقترف في انقسامهم...

كل واحدٍ منهم يطلب من الآخرين العفو إذا ما قال شيئاً يمس بقانونهم، وكل واحدٍ منهم يسامح ويعفو... ولقد فرح الاثنان بهذا الاقتراح، بل ذهبا أبعد من ذلك حين اقترحا أن يمضيا للإشادة باسم الرب في كل بقاع الدنيا، منذ

---

(١) نص المحاضرة. وقد دأب جارودي على الاستشهاد بهذه القصة وكاتبها في العديد من كتبه. مثل الإسلام (١٣٦ - ١٣٨).

أن يصبحوا موحدين من نفس العقيدة. وكل واحدٍ منهم انزوى في بيته باقياً على عهده، وعلى ما وعد به.»[1]

والحكاية لا تحتاج إلى تعليق، إذ هي أوضح من أي تعليق، وثمرتها ما ختم به محاضرته قائلاً: «هذا يعني بأننا نكافح، كل واحدٍ منا، على جبهة ضد الأصوليين الذي لا تخلو منهم أي مجموعة دينية. وأعني بالأصولية الاتجاه والنزعة في خلط ديننا وعقيدتنا بالشكل الذي أخذته في هاته أو تلك الحقبة من التاريخ.

إن رسالة القرآن عالمية، وتحويل هذه الرسالة إلى التقاليد الخاصة بحقبة من الزمن أو بشعبٍ ما يعتبر دفاعاً عن فلكلور وليس عن عقيدة... استرجاع رسالة إبراهيم التي هي مُوحِّدة، وذلك للإجابة والرد على التحديات في عصرنا هذا بعيداً عن تناقضاتنا.»[2]

هذا هو مضمون «الإبراهيمية» لدى جارودي:

• تخلي كل أهل ديانة عن «شريعتهم» بل و«عقيدتهم» المميزة لهم عن سائر البشر، بحسبانها وقتية لزمنٍ معين، وشعب معين.

---

(١) نص المحاضرة بالأصل الفرنسي، والترجمة العربية لدى الباحث.
(٢) المرجع السابق.

• الوحدة في العالم بما يحمله من تنوع واختلاف وربما تضاد.

فليس مراد جارودي بـ «التوحيد» و«الأديان التوحيدية» توحيد الخالق بالعبادة، الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، ومَن قبله مِن أنبياء الله، ومَن بعده مِن ذريته، وخيرهم وأبرهم وأفضلهم وأعظمهم توحيداً محمد ﷺ. بل مراده توحيد المحسوس والمعقول. توحيد العلم والحكمة. توحيد البشر رغم اختلاف معتقداتهم، مع اعتقاد الله واحداً.

يقول في تعريف التوحيد: «التوحيد، أي الاعتراف لا بوحدانية الله فحسب، بل بوحدانية كل واقع، بما فيه وحدانية الجماعة البشرية الشاملة»[1]، «تتصف الرؤية الإسلامية أنها موحِّدة على نحو أساسي. ومثال ذلك أن العالم المحسوس، عالم الطبيعة، غير مفصول أبداً عن المعقول، ولا عن الله: فظاهرات الطبيعة هي آيات الحضور الإلهي، لغة يتكلمها الله إلى الإنسان...

والمسألة الرئيسة في الثقافة الإسلامية، في كل مجالات اللاهوت والفلسفة حتى العلوم والفنون، هي فكرة

(١) نحو حرب دينية. جدل العصر (٣٣).

الوحدة. هذه الوحدة الأساسية (توحيد)، لا تقتصر على التأكيد أن الله أحد. وليس (التوحيد) من مجال الوقائع بل من مجال الفعل. إنه لا يشيد فلسفة الوجود كفلسفة الإغريق، ولكنه يشيد فلسفة الفعل.»[1]

إن امرأً يُدعى لحضور ملتقى باسم «إبراهيم» عليه السلام ليتبادر إلى ذهنه التوحيد الخالص الذي دعا الله إليه عبده وخليله إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]. التوحيد الذي حمله على تحطيم الأصنام وجعلها جذاذاً، وهو بعدُ فتىً، وثبت في سبيله، وهم يضرمون له النار ثم يلقونه فيها، التوحيد الذي من أجله صمّم على ذبح وحيده، وفلذة كبده إسماعيل، الذي جاءه بعد أن بلغ الكبر، وبلغ الغلام معه السعي حتى ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، التوحيد الذي حمله على التبرؤ من والده، وترك الاستغفار له لما ﴿تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ [التوبة: ١١٤]، لكن جارودي يتناول «التوحيد» على نحو مغاير.

---

(١) الإسلام (٤٦ - ٤٧).

إنه في أحسن الأحوال اعتقاد أن الله واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، وهذا توحيد الربوبية المركوز في الفِطر، الذي أقر به عامة البشر، بما فيهم المشركون. وهو بذلك يوافق المتكلمين الذين يجعلونه الغاية في التوحيد، ويجهدون أنفسهم في إثباته[1].

وحين يفسر «الإسلام» بالخضوع المطلق لله، فإنه يشير إلى خضوع ذهني لا وجود له في الخارج، ولا يلتزم بشريعة معينة، أوَ اتباع هدي نبي معين.

والتوحيد المهم عند جارودي هو توحيد العالَم، أفراده، وأديانه، وثقافاته، وفنونه، وسائر مناشطه حول معنى، أياً كان ذلك المعنى. فليس مراده بتوحيد الفعل، توحيد الله بأفعال عباده التي شرعها لهم أنبياؤه، بل ما هو أوسع من ذلك.

يقول معرباً عن هدفه: «إن مهمتنا هي أن نجمع جميع الناس ذوي الإيمان – أيّاً كان إيمانهم – ضد العالم الحالي، عالم اللامعنى، وأن نخلق نَوَياتٍ[2] لمقاومة اللامعنى، شاجبين ومقاتلين كل ما هو مناقضٌ لوحدة العالم السمفونية.»[3]

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥ - ٤٢).

(٢) نَوَيات: جمع نواة.

(٣) نحو حرب دينية. جدل العصر (٧٣).

لقد حمل جارودي إلى عالم الإسلام فكرة مزدوجة، كعملة نقدية على أحد وجهيها صورة «كيركجارد»، الذي استقى منه حتى ارتوى في مستهل شبابه ملحمة الإيمان الإبراهيمي والتضحية، والبحث عن المعنى، فاعتنق النصرانية، وعلى الوجه الآخر صورة كارل ماركس الذي أشعل في قلبه الهم الاجتماعي، والعمل الفاعل لرفض الاستغلال والثورة على الظلم سعياً للكمال الإنساني.[1]

فحين أقبل على عالم الإسلام أسقط حِمله السابق عليه، فراق له المتصوفة بسبب نزعتهم إلى «التعالي»، والتحرر من الأشكال والطقوس، وتمازج الأديان عندهم، لكن لم يرق له فيهم عقيدة «الجبر»، وتفسيرهم «التوحيد» بوحدة الوجود التي تجعل من كل واقع، محبوباً لله لا ينبغي دفعه وتغييره. كما أعجبه في المعتزلة «قدريتهم»، وتأكيدهم الفعل الإنساني والمسؤولية، وغلوهم في ذلك، بينما يتجاهل تكفيرهم اليهود والنصارى. ولم يتح له أن يتبين منهج أهل السنة والجماعة بصورته الحقيقية، لا المنتحلة، ليرى كيف تجتمع المزايا والحسنات، وتقصي العيوب والسيئات، في نظام بديع متوازن مطرد، و ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن

(١) انظر في بيان تأثره بهاتين الشخصيتين: روجيه جارودي والمشكلة الدينية (٣٩ - ٤١).

يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

٢- «معاني اللقاء حول إبراهيم» للأستاذ كامل الشريف. وقد فهم من هدف الملتقى ما يلي: «إنها محاولة للعودة لأصل الأديان السماوية، والتأمل في مصدرها الأول قبل أن تتشعب إلى الأديان الثلاثة المعروفة... وأن يكون هذا التأمل وسيلة للتعرف على عناصر التشابه، وصور اللقاء، على أمل أن تشكل هذه العناصر قاعدة للتعاون بين المؤمنين الصادقين من أتباع الديانات السماوية، لنصرة الإيمان، ودعم الحق، ورفع المظالم، وإنقاذ الإنسانية من مهاوي الردى.»[1]

وواضح أن هذا المستوى من الطرح، قد تجاوزه جارودي، ويندرج ضمن أدب المجاملات، أو بالأحرى المداهنة في دين الله. فأي «إيمان صادق» يثبته الأستاذ الشريف لليهود والنصارى، وقد أكفرهم الله وذمهم في كتابه، وأي نصرة للإيمان، ودعم للحق يرجوه من قوم قال الله فيهم: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا﴾ [آل عمران: ١١٩].

والأستاذ كامل الشريف بحكم موقعه الرسمي في

(١) جريدة الدستور الأردنية. الاثنين ١٦/ ٢/ ١٩٨٧م (٧).

بلده تلك الفترة، ومنطلقاته الدينية والقومية ضد «دولة إسرائيل»، يهدف بالدرجة الأولى إلى استثمار الملتقى للتنديد بالصهيونية الباغية، وفلسفتها القائمة على فكرة «وعد الله لإبراهيم بجعل نسله من سارة، شعبه المختار، ومنحهم أرض فلسطين» وقد أسرف – عفا الله عنه – في الاستشهاد بنصوص منسوبة إلى التوراة والإنجيل، وأقوال لقديسي النصارى وفلاسفة اليهود، في مقام كان ينبغي – حيث صار إليه – أن يشهد لدين الله الحق.

٣ - **«إبراهيم في التصور الإسلامي» للشيخ أحمد جنتي**، استهلها بقوله: «تحية لكل الإبراهيميين الحقيقيين»، وضمنها سيرة إبراهيم عليه السلام من خلال القرآن الكريم، واستنتج بعض الدروس والفوائد، ودعا إلى إحياء سنة إبراهيم.[1]

٤ - **«سيدنا إبراهيم عليه السلام، نموذج الإنسان الحضاري الكامل» للشيخ: محمد علي تسخيري.** ضمنها خصائص إبراهيم عليه السلام من خلال سياق نصوص القرآن الكريم، وختم محاضرته بالقول: «وبعد

---

(١) نص المحاضرة لدى الباحث. ومما يحمد له أنه صرح دون مواربة، أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وأن أنبياء الله من بعد إبراهيم حجوا بيت الله الحرام.

كل هذا، ألا يحق لنا أن نعبر عن إبراهيم بأنه النموذج الإنساني الحضاري الكامل. وأنه (الأمـة) القائمة لوحدها. وأنه المحور الذي يجب أن تجتمع حوله الأديان جميعاً، وتسير في ظله محققة هدفه، وهدف الأنبياء جميعاً، وهو تعبيد الإنسانية لله، والصراع ضد الطاغوت والاستكبار.»[1]

أليس رسـول الله محمد ﷺ، وخاتم النبيين، المبعوث إلى الناس كافة أولى أن يقال عنه هذا الكلام، بدلاً من الانسياق خلف بدعة «الإبراهيمية»، مهما كانت الدوافع الخاصة، سواءً لنصرة القضية الفلسطينية - كما فعل الأستاذ كامل الشريف أو لترويج شعارات الثورة الإيرانية كما سخرها التسخيري؟!

٥ - **«الوعد» للدكتور إلمر بيرجر.** وقد بعث بهذه الدراسة التي «تثبت زيف التفسير الصهيوني للعهد الإبراهيمي»، حسب إفادة الأستاذ كامل الشريف.[2]

٦ - **«هل يوجد دين واحدٌ صحيح أم أديان متعددة؟» للدكتور هانس كونج** وهو دراسة مطولة في قرابة أربعين

---

(١) نص المحاضر لدى الباحث.

(٢) جريدة الدستور الأردنية. ١/ ٣/ ١٩٨٧م (٥).

صفحة. وخلاصة الإجابة على هذه التساؤل، كما نقل الأستاذ الشريف: «أنه يعتقد – كرجل دين مسيحي- أن المسيحية هي الدين الصحيح. إلا أنه يسلم أنها لا تملك كل الحقيقة، كما يعتقد أنَّ انفتاح الفاتيكان على الأديان الأخرى ليس كافياً، وأن التبشير المسيحي في العالم الثالث ليس أخلاقياً، لأنه يعتمد على القوة، أو استغلال الظروف الاجتماعية.

ويرى أن التبشير بالأديان يجب أن يجري في مناخ متحرر من الضغوط، وهي أفكار تشكل في مجموعها خطواتٍ للأمام نحو ما يسميه (إنسانية الأديان).»[1]

وليت واحداً من المسلمين قال: إن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو الدين الصحيح الذي لا يقبل الله ديناً سواه – كما فعل هذا القس – ولكن القوم ما بين باطني، إسماعيلي أو قادياني، أو شيعي، أو سني غلبت عليه المجاملة ومداهنة النصارى الذين لا يجاملون في دينهم أحداً، إلى الحد الذي لم يلبوا رغبة ضيوفهم المسلمين في أداء صلاة الجمعة في ركنٍ من جامع قرطبة السليب، كما حكى الأستاذ كامل الشريف نفسه.[2]

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

أما جارودي، فيكفيه وإن لم يبلغ سائر المتحدثين مبلغه، ويعوا فكرته الموغلة في الزندقة، أن يتحقق هذا المظهر الجمعي للديانات الثلاث في قرطبة.

يقول الأستاذ أنور الجندي عن الإبراهيمية: «هي في أصلها محاولة لخداع المسلمين بما يسمى الرابطة التي تربطهم بالمسيحية واليهودية عن طريق إبراهيم عليه السلام، أبي الأنبياء إسحاق وإسماعيل، دون أن يكشف المخدوعون كيف تغيرت خطة الأديان السابقة للإسلام، وخرجت عن الخط الحقيقي الذي رسم لها... وقد بدا أن الدعوة إلى إحياء الإبراهيمية هي بدل للماسونية، أو هي الماسونية بثوبها الجديد. فهي محاولة اقتحام ترمي إلى الحوار بين الأديان الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام... وهكذا يمكن أن تتحقق رغبة الصهيونية العالمية لأول مرة في الجلوس على موائد الحوار مع المسلمين، وخاصة وهي تبدأ من منطلق خطير هو (الإبراهيمية).»[1]

وبعدها بعشرين سنة، يقول جارودي عام ١٩٩٦م في وصف «الإسلام الحي»: «والإسلام الحي، ينبغي له أن يغتني بالتفكير النقدي في نمو العلوم لدى العظماء

---

(١) تأصيل اليقظة، وترشيد الصحوة (١٧١، ١٧٢).

الغربيين من كانت [1] إلى باشلار.[2]

والإسلام الحي ينبغي له أن يغتني لدى كبار رواد الروح الذين اعترفوا بأبعادها الإلهية من (الأوبانيشاد)[3] في الهند إلى (طاوية)[4] (تشوانغ تسو)[5] ومن (كيركغارد) إلى (دستويوفسكي)[6]...

وستكون النظرية اللاهوتية الإسلامية أغنى بقدر ما تدمج أعمق المساهمات في تفسير الكتابين المنزلين السابقين ولاهوتيهما...

---

(١) كانت: عمانوئيل (Kant) (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فيلسوف ألماني. استمر يدرس الفلسفة ٤٢ سنة، وشطر الفلسفة الحديثة إلى شطرين، ما قبل كانت وما بعده. الموسوعة الفلسفية (٣٧٢ - ٣٧٧).

(٢) باشلار: غاستون (Bachelard) (١٨٨٤ - ١٩٦٤م) فيلسوف فرنسي، مؤلفات في فلسفة العلوم والتحليل النفسي. المنجد في الأعلام (١١٣).

(٣) الأوبانيشاد: أحد كتب الهندوس. «وهي الأسرار والمشاهدات النفسية للعرفاء من الصوفية». الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (٥٣٢).

(٤) الطاوية (Taoism): المدرسة الثانية بعد الكونفوشية في الفكر الصيني القديم. والتاو: هو المنهج أو السبيل. ويقصد به السير على منوال الطبيعة وفق وقوانينها. الموسوعة الفلسفية (١٣٣).

(٥) تشوانغ تسو (Chuang Tzu) المولود في نحو ٣٦٨ ق.م، وقال: إن التاو هو مبدأ الحياة، وأصل الوجود واللاوجود... الموسوعة الفلسفية (١٣٣).

(٦) دستويوفسكي: تيودور (Dostoyevsky) (١٨٢١ - ١٨٨١) روائي روسي من أبرز رواد الوجودية. الموسوعة الفلسفية (١٨٠).

فكيف يكون بوسع مسلم أن يحرم نفسه من التجربة الروحية الهندية والصينية، ويجهل تعليم أنبياء الشعوب كلها، في حين أن القرآن الكريم يأمره أن يصدقهم...

وإذ أرسل الله أنبياءه إلى الشعوب كلها، كما يقول القرآن الكريم، ليحملوا الرسالة نفسها في لغة كل شعب، ووفق مستواه وفهمه، فثمة بالتأكيد آثار لهذه الرسالة، على سبيل المثال، في النصوص الكبرى المقدسة بالهند في (الفيدا) و(باغافادجيتا)... وأعتقد على سبيل المثال أن تأملاً عميقاً ومخلصاً في (الأدفائيتا) الفيدية، دون أن نحجب الفروق الجذرية، أو نقلل من أهميتها، بين (الأدفائيتا) الهندوسية و(توحيد) المسلمين – والأب بانيكر فعل ذلك على نحوٍ رائع فيما يخص العلاقات بين الأرفائيتا الفيدية والتصور المسيحي للإله – سيغني تصوري الوحدة لدى الجانبين، ويكشف عن التشابهات الواقعية، والفروق أيضاً، في عمل هندي حقيقي، ومسلم حقيقي، الناجمة عن التصور الخاص بكل من (الأدفائيتا) و(التوحيد).

إن مسلماً يعرف النصوص المقدسة في الهند والصين، نصوص زرادشت، والتوراة، والتقاليد الروحية الكبيرة في أفريقية، وأمريكة الهنود الحمر في الشمال، يمكنه ألا يفهم على نحو أفضل ماهية كلية التنزيل القرآني فحسب، وهو

تنزيل فريد في ذاته – بدلاً من الاعتقاد أنه فريد بمجرد (الغرور) و(الزهو) الساذج، لأننا نجهل أو نحتقر إيمان الآخرين – بل يمكنه أن يباشر مع الناس القادمين من إيمان آخر حواراً سمحاً وجريئاً، حواراً آسراً.»[1]

وأحسب أن قصارى ما يبلغه ذلك المسلم المزعوم الذي يحلم به جارودي أن يصل إلى ما وصل إليه مؤسس «المعهد الدولي لحوار الحضارات» من زندقة وإلحاد، تعقد الموازنات الطائشة بين وحي الرحمن الرحيم، وما تنزلت به الشياطين على كل أفاكٍ أثيم، من أئمة الكفر والضلال في الشرق والغرب.

إن جارودي يهدف من خلال النفخ في صورة هذه الوثنيات التافهة، والأديان المحرفة، إلى الحط من عزة المؤمن الشعورية، باستعلاء إيمانه وعقيدته حتى في حال الهزيمة المادية، كما أمر الله عباده المؤمنين إثر هزيمتهم في أُحُد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. لأن هذا الانحطاط شرط في مشروعه لصهر الأديان والوثنيات والفلسفات، في بوتقة الأممية العمياء التي ينشدها، ولا يتم له ذلك إلا بتخلي أهل

---

(١) الإسلام (٨٧، ٩١، ٩٣ – ٩٤).

الإيمان الحق عن شعورهم بعزة الإيمان، وكمال الدين، وتمام النعمة. ومِن ثم يحاول أن يستزلهم بالأماني المعسولة، وزخرف القول، للانخراط في مشروعه الكفري كقوله: «ومستقبل الإسلام في أيامنا هذه منوط بالجهود التي تبذل لتبسط بسطاً جديداً كل أبعاده التي صنعت في أزمنة أخرى عظمته وألقه، أي في بعده ذي النزعة الكلية الذي لا يقتصر على هذا التقليد أو ذاك من تقاليد الشرق الأدنى وماضيه، بل ينفتح على الثقافات كلها، ويجدد التعايش الغني بين الشرق والغرب، بين الأديان المنزلة، المسيحية والإسلام واليهودية، وحِكَم الفرس والهند والصين في الماضي السحيق.»[1] وهيهات هيهات.

٣) مؤسسة روجيه جارودي - المركز الثقافي في القلعة الحرة:

في خطوة عملية كبيرة لإرساء أفكاره التقاربية بين الإسلام والنصرانية واليهودية، أقدم روجيه جارودي في منتصف الثمانينيات على استئجار، ومن ثم استثمار، موقع تاريخي قديم في مدينة «قرطبة»، يعرف باسم «القلعة الحرة»، ويلفظه الإسبان: كَالَاهُورا (Calahorra)، تحريفاً عن الأصل العربي.

---

(١) الإسلام (١٤٣).

وتقع هذه القلعة على الجانب المقابل لجامع قرطبة الشهير، ويفصلهما نهر قرطبة، المسمى الوادي الكبير، وتربطهما القنطرة التاريخية، قنطرة الوادي، أحد معالم قرطبة.[1]

وقد بشَّر جارودي بهذا المشروع الثقافي، وطوَّف عدداً من البلدان الإسلامية لجمع المساعدات لتجهيزه. ففي مقابلة له مع مجلة «الصياد» اللبنانية في ٩ مايو عام ١٩٨٦م عرف بالمشروع قائلاً: «إن بلدية قرطبة قد وضعت تحت تصرفنا.. برج قَلَهُرَّة الذي يعود إلى أيام الخلفاء المسلمين. وفي نيتنا أن يكون هذا البرج مقراً لمكاتب المركز، كما سنخصص جزءاً منه ليكون متحفاً للفنون والثقافة الإسلامية في الأندلس، وفي إسبانيا عامة. ومن أهدافنا، تعريف الغرب بالإسلام عن طريق الفن، لاعتقادي أن الفن هو أقصر الطرق بين البشر. كما نهدف إلى التعريف بمساهمة المسلمين في حضارة الغرب، منذ أيام ابن مسرة

---

(١) مما قيل في قرطبة ومعالمها، ذكر د. حسين مؤنس أنه: (أبو محمد بن عطية) انظر مجلة العربي الكويتية عدد ٩٥ (٩١) جمادى الآخرة ١٣٨٦هـ أكتوبر ١٩٦٦م.

بأربع فاقت الأمصارَ قرطبةٌ ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيءٍ وهو رابعها

وابن حزم وابن باجه[1] وابن طفيل[2] وابن رشد[3] وابن عربي، وإشعاع هذه الثقافة على جميع أنحاء أوربا. وسيضم المتحف معلومات ونسخاً عن المجالات والاختراعات التي كان المسلمون متفوقين فيها آنذاك، كجراحة العيون، والطب النسائي، والفلك، وسيعمل المركز كذلك على إحياء التأثير الذي أحدثه المفكرون المسلمون في المفكرين الغربيين.»[4]

---

(١) ابن باجَّة: محمد بن يحيى بن باجَّة، أبوبكر التجيبي الأندلسي السرقسطي. فيلسوف ينسب إلى التعطيل والإلحاد. مات في فاس سنة ٥٣٣هـ. تسميه الإفرنج (Avenpace). شرح كثيراً من كتب أرسطو. من آثاره: «رسالة الوداع»، «كتاب النفيس»، تعليق على كتاب الفارابي في القياس. انظر: الأعلام (٧/ ١٣٧).

(٢) ابن الطُفَيل: (٤٩٤ – ٥٨١هـ): محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل، القيسي، الأندلسي، أبوبكر. فيلسوف، تعلم الطب في غرناطة. وخدم حاكمها، ثم أصبح طبيباً للسلطان الموحدي، أبي يعقوب يوسف، سنة ٥٥٨هـ. من آثاره: «حي بن يقظان»، و«رجز في الطب»، و«رسالة في النفس». توفي بمراكش. انظر: الأعلام (٦/ ٢٤٩).

(٣) ابن رشد – الحفيد – محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي، أبو الوليد. ولد سنة ٥٢٠هـ الفيلسوف من أهل قرطبة. عني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية، وزاد عليه زيادات كثيرة. وصنف نحو خمسين كتاباً. منها: «التحصيل»، و«الحيوان»، و«منهاج الأدلة». توفي سنة ٥٩٥هـ. انظر: الأعلام (٥/ ٣١٨)، شذرات الذهب (٤/ ٣٢٠)، آداب اللغة (٣/ ١٠٤).

(٤) عن مجموعة مقابلات في كتاب: روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (٢٣١ - ٢٣٢).

هذا ما تقدم به جارودي من تعريفٍ بمشروعه للمسلمين، وهو على ما فيه يوحي بأنه يهدف إلى تعريف الغرب بالإسلام والحضارة الإسلامية، فلا عجب أن يتمكن جارودي من جمع معظم تكاليف المشروع التي قدرها بسبعمائة ألف دولار من إحدى دول الخليج.[1]

أما الهدف الحقيقي لهذا المشروع «المتحف»، فهو ذات الهدف الذي وقف عليه جارودي حياته بعد هجره الحزب الشيوعي، وهو توحيد الأديان والحِكم والحضارات. وقد صرح بذلك في محاضرته أثناء الملتقى الإبراهيمي حيث قال: «إن الهدف الأساسي للقائنا الإبراهيمي، وللمؤسسة التي افتتحناها في برج (كالاهورا) هو: إحياءٌ جديد للنظرة الكاملة للعقل الذي وصل ذروته في الأندلس. إنه العقل الذي لا يفرق أبداً بين العلوم التطبيقية والرياضية، والحكمة التي تفكر في هدف البحث العلمي، وفي الإيمان والعقيدة التي نستخلص منها وعي الحدود، والملتمسين لهذا العلم ولهذه الحكمة.»[2]

ولكن زيارةً لمتحف القلعة الحرة تكشف بوضوح

---

(١) كما جاء في سلسلة تقارير المعلومات الصادرة عن وزارة الأوقاف بالكويت بتاريخ ٥/ ٣/ ١٩٨٧م.

(٢) نص المحاضرة.

هدف المشروع، وتضع النقاط على حروف البيانات المجملة. ونظراً لخطورة هذا المشروع من حيث المحتوى والأهداف، واتساع أثره، حيث يؤم المتحف مائة ألف زائر سنوياً، حسب إفادة بعض المقربين من جارودي، يجدون فيه عرضاً جذاباً باستخدام التقنيات الحديثة، فسوف نَصِف ما يلقاه الزائر ويشاهده في القلعة الحرة:[1]

حين يدلف الزائر من باب القلعة يجد نفسه في بهو علقت فيه سجادة إيرانية، ووضع في زواياه بعض المشغولات اليدوية القديمة، والصناديق الخشبية المزخرفة. وعليه أن يضع طوق السمّاعات على أذنيه ليسمع الآتي بإحدى اللغات الثلاث: الإسبانية، الفرنسية، الإنجليزية: «مرحباً بك في برج القلعة الحرة. إنك لست في متحف، وإنما في برج القلعة الساحر، حيث التقنيات العصرية الحديثة استخدمت لتوصل لك رسالة سرمدية، ذات صلة موضوعية وثيقة، اليوم أكثر من ذي قبل.

العالم ليس بلا وعي. الحياة ذات معنى. إننا نلج داخل حقبة خاصة جداً من تاريخ العالم: من القرن التاسع حتى

---

(١) قام الباحث بزيارة القلعة الحرة والوقوف على مقتنياتها، والاستماع للشروح المسجلة في أرجاء القلعة، واقتناء المطبوعات ذات العلاقة، وذلك يوم الجمعة الموافق ٧/ ٤/ ١٤١٧هـ.

القرن الثالث عشر في قرطبة، حيث كان يعيش مليون نسمة من الناس في أكبر مدينة أوربية، ومركز الثقافة في ذلك العهد.

هناك تحقق عدم الفصل بين الدراسة العلمية الدقيقة، والحكمة والإيمان. لا شرق منفصل عن غرب، ولا مسلم عن يهودي أو مسيحي.

هنا بدأ عصر النهضة الحقيقية، حيث أزهر ونما.»

وبعد هذه **القاعة الأولى** «المدخل»، ثَمَّ ثماني غرف متخصصة:

القاعة الثانية: وهي أهم ما في القلعة من الناحية الفكرية المتعلقة بمشروع جارودي، حيث اتخذ أربعة تماثيل مجسمة – بحجم الرجل العادي – تمثل:

١ – **ابن رشد الفيلسوف** (٥٢٠ – ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ – ١١٩٨م) محمد بن أحمد القرطبي ويسميه الأوربيون (Averroes).

٢ – **الميموني، الفيلسوف اليهودي** (٥٢٩ – ٦٠١هـ = ١١٣٥ – ١٢٠٤م) موسى بن ميمون القرطبي. ويسميه الأوربيون (Maimonides).

٣ - **ابن عربي الصوفي** (٥٦٠ - ٦٣٨هـ = ١١٦٥ - ١٢٤١م) محمد بن علي الطائي.

٤ - **ألفونسو العاشر** (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) ويلقب بـ (el Sabio) أي «العاقل» أو «الحكيم».

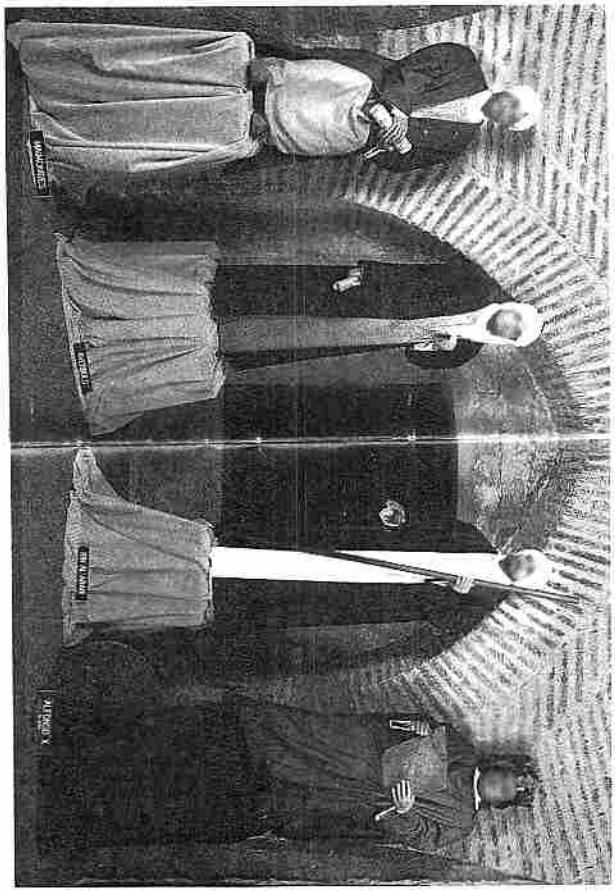

وبينما تصطف الشخوص الأربعة المكسوة بملابس ذلك الزمان؛ النصراني واليهودي في هيئة الجالس، وبينهما ابن رشد وابن عربي قائمين!، يتناوب الأربعة في الحديث، والإعراب عن نظرتهم للحياة، كما صاغ ذلك جارودي من مقالاتهم:

• يقول ابن رشد: «إن فلسفتنا سوف لا تقدم شيئاً إذا لم تكن قادرة على الربط بين ثلاثة أشياء، تلك التي حاولت أن أجمع بينها في توفيقي بين العلم والدين.[1]

العلم، يحصل بالتجربة، والمنطق، لاكتشاف الأسباب.

الحكمة، التي تعكس الغاية من كل بحث علمي، ولذلك تجهد لكي تجعل حياتنا أكثر جمالاً.

الإيمان، من قرآننا، كما لو كان فقط من خلال الإيمان بأننا نعلم الغايات النهائية لحياتنا وتاريخنا.»

ثم يعقبه حوارٌ ومساءلة معه.

• ويقول الميموني: «في كتابي (دليل الحائرين) أعطيت القوانين للقراءة المجازية للمخطوطات التي تأخذ التاريخ في حسابها.

---

(١) المراد كتابه: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» مطبوع.

إن مصاعبنا يجب أن تُحل من منطلق الأصول السرمدية، ليس ثم تناقض بين المطلق والتاريخ. تعليل الإنسان مجرد مشاركة في التعليل الإلهي الذي يتخطانا بلا حدود، ويحقق نفسه فقط في النبوءة التوراتية.

إن دورة جديدة للتاريخ تبدأ، فقط عندما يتوجه نبي كموسى إلى الناس مقترحاً قانوناً جديداً لهم.»

ثم تتلوه محاورة وتساؤلات، يجيب عليها الميموني.

• ثم يقول ألفونسو العاشر، ملك ميورقا: «ها هنا كان الأداء الأكثر تألقاً في فترة حكمي: أن نخلق في ميورقا، مع الفيلسوف المسلم محمد الريقوتي، أو مدرسة في العالم يعلم فيها النصارى واليهود والمسلمون معاً.

(يا يسوع/ يامن تقدر أن تُحيي/ المسيحيين واليهود والمسلمين/ طالما إيمانهم/ يوجههم نحو الرب).

في ظل حكمي، شكراً لجهود الرجال الحكماء من الأديان الثلاثة، لقد استطاعت إسبانيا القرن الثالث عشر أن توقظ في جميع أوربا نهضة صحيحة، تجري ليس ضد الرب، ولكن مع الرب.»

ثم تعقيب كسابقيه.

• ويختم ابن عربي بالقول: «الرب وحدة. وحدة الحب والمحِب والمحبوب. كل محبة فهي رغبة بالاتحاد. كل محبة فهي بوعي أو غير وعي محبة للرب.

تحمل الشهادة لحضور الرب في داخلك، لخلق الله الذي ينقطع. الفعل هو المظهر الخارجي للإيمان. الإسلام يعرِّف جميع الأنبياء كرسل لذات الإله.

تعلم أن تكتشف في كل إنسان بذرة الرغبة إلى الله، حتى عندما يكون إيمانه لا يزال باهتاً، وأحياناً وثنياً. أعِنْ في هدايته باتجاه النور التام.»

وتعقُبه أسئلة «المريدين»، وإجابات الشيخ بما فيها أبياته في وحدة الأديان والأوثان.

القاعة الثالثة: وتتضمن صوراً ومجسمات وأدوات وآلات وخرائط تبين مساهمة علماء الأندلس في العلوم والتقنية، في مجال الطب والصيدلة والجغرافيا والري.

وتحتل هذه القاعات الثلاث مسطح الدور الأرضي للقلعة الحرة.

وفي الدور الثاني:

القاعة الرابعة: وقد علق فيها صورة كبيرة لمجلس الخليفة عبد الرحمن الثالث الأموي في مدينة الزهراء، الذي تولى الخلافة عام ٣٠٠هـ ٩١٢م، وهو يستقبل وفداً من نصارى المشرق في سفارة من الإمبراطور البيزنطي، يحملون هدية، مصنف في علم النبات للإغريق.

ثم يجيء التعليق قائلاً: «رمز اللقاء بين الشرق المسيحي والغرب المسلم.»

وثم صورة لمحراب جامع قرطبة، يغرق التعليق في تدبر زخرفته.

القاعة الخامسة: تحتوي مجسماً لقصر الحمراء في غرناطة، يصاحبه حديث مستفيض عن معمارها وفنونها، وما نسج حولها من أحلام الحب والغرام.

القاعة السادسة: خصصت للآلات الموسيقية الأندلسية. أما التعليق فيقول

«في هذه الغرفة تستطيع أن تسمع الموسيقى العربية الأندلسية تحت قبة محراب الجامع. التسبيح النهائي لله في روعته».

القاعة السابعة: وتضم مجسماً «أنموذجاً» لجامع قرطبة الشهير، الذي حُول إلى كاتدرائية. ويركز التعليق على موقف

ألفونسو العاشر الحكيم الذي قال: «لا شيء في المسجد يُزال أو يحطم» بعد سقوط قرطبة في أيدي النصارى.

القاعة الثامنة: أُطّرت بأعمدة وأقواس على نمط جامع قرطبة، وصُفت تحتها تشكيلات صغيرة متنوعة تمثل صورة الحياة الاجتماعية والتجارية في بيوتات وأسواق ومساجد ومعابد وكنائس ومرافئ ومنتزهات الأندلس، تحت عنوان «رحلة إلى الوراء».

القاعة التاسعة: قاعة عرض سينمائي لفيلم يعالج ذات القضية، ويتضمن التعليق الختامي التالي:

«إن أول نهضة أوربية لم تبدأ في إيطاليا في القرن السادس عشر، بل في القرن الثالث عشر في إسبانيا.

منذ آلاف السنين كان جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، الأندلس، محل لقاء لمختلف ثقافات وروحانيات الشرق، وحوض البحر المتوسط. الشرق، أرض الرسالات الإلهية، جلب تقاليد أنبيائه من إبراهيم إلى موسى، من عيسى إلى محمد.

انتشر الإسلام بسلاسة عبر هذه الأرض، لأنها تحوي جميع تلك التمثيلات، وأيضاً لأنها كانت مفتوحة لكل

أحد، لكونها تعترف بجميع الإيمانيات السابقة. لقد أغنت مرحلة انتقالية جديدة في حياة جنسنا البشري، هذه الفكرة المكتملة للعقل، التي لا تفصل العلم عن الحكمة أو الإيمان، كما ازدهرت في قرطبة.

للتفكير في الغايات والإيمان، يستجوب المشكلة ذات البعد الأخلاقي للطاقة النووية، وتسليح الفضاء، والعبث الجيني في علم الأحياء، كما التنمية الاقتصادية، يتحتم علينا أن ننسق قوانا الجديدة لغايات، تكون إنسانية، وبعبارة أخرى إلهية.

لنعيد تقديم هذين البُعدين في عالمنا اليوم، دون التخلي عن التصميم الحتمي لكل مجتمع:

• التعالي: وبعبارة أخرى تثبيت القيم المطلقة والكلية فوق وخلف اهتمامات الأفراد والمجموعات والقوميات.

• الجماعية: وبعبارة أخرى الدينونة داخل كل كائن إنساني أنه مسؤولٌ عن مستقبل جميع الآخرين. بذلك فقط سنكون قادرين لبلوغ هدفٍ يكون مشتركاً للإنسانية المناضلة. لمنح كل الرجال والنساء والأطفال، وكل تقنية، وسياسة، وثقافة، وسائل للتطور للمدى الكامل للكفاءات الإنسانية الموجودة فيهم.

لذا، لعل قرطبة تنجز رسالتها ذات الألف عام بين الشرق والغرب، لِتُروي كنهرٍ كبير جميع قوى الحياة على شاطئيه.»[1]

إن هذا ما يريد جارودي، وليس بالبساطة والسذاجة التي تصورها بعض الناس المغرر بهم؛ أنه يريد تصحيح صورة الإسلام في أذهان الغربيين، ونشر مآثر الحضارة الإسلامية الحقة. لقد تجاهل جارودي جهود علماء المسلمين في نشر التوحيد والعقيدة الصحيحة، ودحض الشرك بأنواعه، وإبطال دين اليهود والنصارى، وحفظ السنة النبوية، وإثراء الفقه وأصوله، من قبل جهابذة الأئمة والحفاظ والزهاد والعبّاد الذين فاضت بذكرهم العَطِر كتب التراجم والسير. وطفق يبحث عن كل زنديق ونحوه، يؤلف منهم عصابة سوء، ورهط ضلالة، من يهودٍ ونصارى وفلاسفة وباطنية وصوفية، ويقول للناس: هذا هو الإسلام، وتلك نهضة الأندلس.

ويتعامى عن الحقائق الظاهرة، فيزعم أن الإسلام لم

---

(١) تمت ترجمة جميع المقاطع السابق من كتاب: (*CORDOBA-CALAHORRA*)، (= قرطبة. القلعة الحرة. جسر من الشرق إلى الغرب). ص ٣، ٦، ٧، ١٢، ١٤، ١٦، ١٨، ٢٤. وانظر أيضاً (*The Meaning of Life in Andalusia*) (= معنى الحياة في الأندلس).

يدخل الأندلس باسم الجهاد، ولم يحقق نصراً حربياً مؤزراً، بل كان تجاوب السكان الأصليين ممن يعتنقون الأريوسية الموحّدة مع القادمين الجدد الذين لم يقصدوا – في زعمه – أن يبشروا بدينٍ جديد..

إنه حين يتحدث عن «الإسلام»، ويقول عنه قولاً حسناً يطرب له أصحاب العواطف والنوايا الساذجة، فإنما يضمر في نفسه الإسلام الذي اصطنعه، ورسم صورته، وحدد أركانه، ليس إسلام محمد بن عبد الله ﷺ، عقيدة وشريعة، بل ولا إيمان إبراهيم عليه السلام عقيدة دون شريعة، ولكنه إسلامه الخاص الذي بناه على ركنين:

أحدهما: ركن «التعالي» الذي يعني وجود قيم مطلقة، أياً كانت تلك القيم، المهم أن يكون للحياة معنى. ونبيُّه في ذلك كيركجارد.

الثاني: ركن «الجماعية» الذي يعني شيوعية الثقافة والاجتماع والاقتصاد للإنسانية المناضلة، ونبيُّه في ذلك كارل ماركس.

فلا مكان «لشريعةٍ مهيمنة»، بحسبانها تقاليد وفلكلور لشعبٍ معين في تاريخ معين. ولا إقرار بأمةٍ متميزة تكون «خير أمة أخرجت للناس»، فجميع الطرق تؤدي إلى الله

– في زعمه – ما دامت الأفعال كلها محبة، وكل محبة فهي بوعي أو بغير وعي محبة للرب، كما قال سلفه ابن عربي.

كل هذا الكفر شُيد بأموال المسلمين وتبرعاتهم، والأنكى من ذلك أن يُحمى بأقلام كُتابهم، ومن ينسب إلى العلم منهم، ببواعث عاطفية عمياء، كالوقوف معه باسم الإسلام في صراعه مع الصهيونية. فحين حوكم في فرنسا، أقيم له مهرجان مناصرة في إحدى العواصم العربية، و«استقبل استقبال الفاتحين، ولقي ترحيباً رسمياً وشعبياً منقطع النظير»[1] بدأ منذ وصوله إلى المطار. ثم أقيمت له مهرجانات عدة، احتشد في أحدها عدد من السفراء، والرسميين، ورجال الفكر والسياسة، وقام أحد الشيوخ مرحباً بالضيف فقال:

> إننا في هذه الليلة نعيش وقتاً أعتبره من الأوقات المباركة النافعة الإيجابية في زمن التجبر الإسرائيلي، والتفرد الأمريكي، والعجز العربي، والغياب الأسيوي. نرى هذه البادرة بصيصاً من النور، لتبين أن للحق أنصاراً يخرجون من حيث لا يحتسب الناس...
>
> لقد قال هذا المفكر كلمة الحق، ولم يبال بعد ذلك.. أراد بعض الناس أن يجردوه من دينه، ومن عواطف

(١) مجلة العالم. العدد الأول. صفر ١٤١٦هـ يونيو ١٩٩٨م.

المسلمين معه... لو لم يكن مسلماً لوقفنا معه أيضاً، لأننا مع الحق فكيف به وقد أضيفت إليه أخوة الإسلام؟! وقد قلت له في رمضان: نحن معك... ، ومعك أكثر من مليار مسلم... سِر في طريقك، واثبت على موقفك، وثق أن الله هو ناصرك، وأن الله هو الحق المبين.[1]

إذا كان بعض علماء المسلمين في هذا الزمان لا يحتكمون إلى نصوص الكتاب والسنة، ولا يَزِنون الأقوال والأفعال بميزان الشريعة، فما بالك بالصحفيين، وأنصاف المثقفين، بلْه عامة الناس؟! فكيف إذا كان الأمر لم يبلغ درجة الاشتباه الذي يحتاج إلى تحرير الفقهاء، واجتهاد المجتهدين، إذا كان صاحب الشأن نفسه – أعني روجيه جارودي – يقول بملءِ فِيه، ويسطر ذلك بأنامله، لا يخاف لومة لائم: «دخلت الإسلام، وبإحدى يدي الإنجيل، وباليد الأخرى كتاب (رأس المال) لماركس، ولست مستعداً للتخلي عن أيٍ منهما.»[2] وذلك بعد إعلان إسلامه المزعوم بسبع سنين.

ويقول أيضاً: «إنني عندما أعلنت إسلامي لم أكن أعتقد بأني أتخلى عن مسيحيتي ولا عن ماركسيتي، ولا أهتم

---

(١) مرجع سابق.

(٢) جولتي في القرن وحيداً (٣٣٧). طبع عام ١٩٨٩م.

بأن يبدو هذا متناقضاً أو مبتدعاً»[1] بعد إسلامه بسنتين. ويقول: «أحب أن أؤكد بأنني لم أدِر ظهري للماركسية على الإطلاق.»[2]

فهل يبقى بعدَ هذا معنىً لقول القائل: «أراد بعض الناس أن يجردوه من دينه»، فهل جرده أحدٌ أم أنه لم يلبسه أصلاً؟!

في خُميَّا العواطف المشبوبة، والنظرة القصيرة، يغفل بعض العلماء عن سبب عداء جارودي للصهيونية ودولة إسرائيل المؤسسة على أسطورة «شعب الله المختار»، إن السبب باختصار أن هذه النظرة القومية لا تتفق ومشروع جارودي وأمله في إنسانية موحدة، لا على دين الله، ولكن على معنى من المعاني، أياً كان ذلك المعنى، دون أن يدعي أحد أنه يمتلك «الحقيقة المطلقة»، ويشعر بالعلو والفوقية على بقية الناس.

إن السبب ذاته سوف يحمل جارودي على الانقضاض على المسلمين أنفسهم حين يعتقدون ما قال الله في كتابه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله:

---

(١) جريدة «البعث السورية» عدد ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م.

(٢) جريدة «تشرين» عدد ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، سواءً بسواء.

وهل يظن هؤلاء العلماء أن جارودي يرى فرقاً بين ادعاء اليهود أن فلسطين، أرض الميعاد، وهبة الله لبني إسرائيل، ودعوى المسلمين الصادقة: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]؟

إن ميزان جارودي في الباطل مطرد، وميزان هؤلاء في الحق مضطرب.

ونختم بهذين النصين الصارخين لجارودي:

«وليكن كلٌ منا ما يكون، مسلماً أو مسيحياً، فإن ذلك لا يفصله عمن لا يشاركه دينه.. وسنلتقي جنباً إلى جنب مع كل أعضاء البشرية التي تحطم قيود الجزئي، وقيود الفردية والقومية التي تفتت العالم.»[1]

«هذا النضال، هو نضال كل أصحاب العقيدة، أو المؤمنين بعقيدة، مهما يكن نوع إيمانهم، ولا يهمني ما يقوله الإنسان عن عقيدته؛ أنا مسلم، أو أنا مسيحي، أو أنا

---

(١) جولتي في القرن وحيداً (٤٣٧). عن روجيه جارودي والمشكلة الدينية (٢٥٩).

يهودي، أو أنا هندوسي.»[1]

ولنا قول الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] ، وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] ، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦] .

* * *

(١) الإسلام (١٢).

المراجع

١) **الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة الروح والفكر.** روجيه جارودي، ترجمة: د. محمد مهدي الصدر (دار الهادي، بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م).

٢) **الإسلام.** روجيه جارودي، ترجمة وجيه أسعد (دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م).

٣) **أصول الأصوليات والتعصبات السلفية.** روجيه جارودي (مكتبة الشروق، القاهرة، طبعة يناير ١٩٩٦م).

٤) **الأعلام.** خير الدين الزركلي (دار الملايين، بيروت - لبنان، الطبعة السادسة ١٩٨٤م).

٥) **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.** ابن القيم، محمد بن أبي بكر، تحقيق وتعليق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت - مكتبة الخاني - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٦) **الأقليات المسلمة في العالم: ظروفها المعاصرة: آلامها: آمالها:** أبحاث ووقائع المؤتمر العالمي